

الباب الخامس

فتح بلاد اليونان

٢٠١ - ١٤٦ ق م

الفصل الأول

الاستيلاء على بلاد اليونان

لما تحالف فليب ملك مقدونيا مع هنيبال على رومة (٢١٤) ، كان يأمل أن تسير في ركابه بلاد اليونان كلها لإهازق روح ذلك الجبار الناشئ في الغرب ؛ ولكن الشائعات ما لبثت أن انتشرت تقول إنه كان يعتزم إذا ما انتصرت قرطاجنة أن يفتح أرض اليونان كلها بمعونة حلفائه القرطاجنيين ؛ ومن أجل ذلك وقعت العصبة الإيتولية Aetolian ميثاقاً تعهدت فيه أن تساعد رومة في سحربها ضد فليب ؛ واستطاع مجلس الشيوخ بفطنته أن يستفيد من هذا الخللان فيتمتع فليب بعقد صلح منفرد مع رومة (٢٠٥) . وما كاد الرومان ينتصرون في معركة زاما حتى أخذ مجلس الشيوخ - وهو الذي لم ينس قط إساعة وجهت إلى بلاده - يكيد لمقدونية ويستعد للثأر منها . ذلك أن هذا المجلس كان يشعر بأن رومة لا تستطيع أن تأمن على نفسها ما دام من ورائها تلك القوة العظيمة التي لا يفصلها عنها إلا بحر ضيق . ولما أن عرض مجلس الشيوخ اقتراحاً بإعلان الحرب اعترضت الجمعية على هذا الاقتراح وقام أحد التربيونين يتهم الأشراف بأنهم يريدون أن يحولوا أنظار الشعب عما في البلاد من فساد^(١) ؛ ولكن المعارضين

في الحرب سرعان ما أخذت أصواتهم واهتموا بخور العزيمة وضعف الوطنية ؛
وما وافى عام ٢٠٠ ق . م حتى أبحرت . كونكتوس فلامينوس *T. quintus*
Flaminus إلى مقدونية .

وكان فلامينوس فتي في الثلاثين من عمره ، وكان من أفراد تلك الدائرة
الحررة المعينة بصبغ البلاد بالصبغة الهلينية ، والتي كانت تتجمع في رومة
حول آل سيبو . والتقى بفليب عند سينوسفلى *Cynoscephalae* بعد عدة
حركات عسكرية ماهرة ، وهزمه هزيمة منكرة (١٩٧) . ثم أدهش جميع
أمم البحر الأبيض المتوسط ، ولعله أدهش رومة نفسها أيضاً ، بأن أعاد
فليب ، بعد أن عاقبه على فعلته ، إلى عرشه المفاص الهزيل ، وعرض على
بلاد اليونان كلها أن يعيد إليها حريتها . واحتجت العصابة الاستعمارية من
أعضاء مجلس الشيوخ ولكن الأحرار تغلبوا إلى وقت ما ؛ وأعلن رسول
من قبل فلامينوس في عام ١٩٦ إلى حشد كبير اجتمع في الألعاب التي
كانت قائمة في البرزخ اليوناني أن بلاد اليونان ستحرر من سيطرة رومة
ومقدونية ، وستعفى من أداء الجزية ، وأن الحماية الرومانية نفسها ستسحب
منها . ويقول أفلوطنرخس إن الجمهور المحتشد هتف له هتافاً عالياً بلغ من
شدته أن ماتت الغربان التي كانت تطير فوق الملعب وهوت إلى الأرض (٢) .
ولما أظهر العالم المتشكك ريبته في نيات القائد الروماني ، بدد شكوكه
بسحب جيشه إلى إيطاليا ، وكان هذا العمل صفحة ناصعة البياض في
تاريخ الحروب .

ولكن الحرب تستتبع الحرب على الدوام ، فقد استاء الحلف الإيتولي من
تحرير المدن اليونانية التي كانت من قبل خاضعة له ، وطلب إلى أنتيوخوس
الثالث *Antiochus III* أن يحرر بلاد اليونان من حريتها . واغتر أنتيوخوس

بما حازه من نصر رخيص في بعض المعارك التي خاض عمارها في الشرق ، فسولت له نفسه أن يبسط سلطانه على غرب آسية بأجمعه . ونخشيت برجوم عاقبة بغية فلجأت إلى رومة تستعينها عليه ، وأرسل مجلس الشيوخ سبيو الإفريقي وأخاه لوسيوس Lucius مع أول جيش روماني تطأ أقدامه أرض آسية ، والتحم الجيشان عند مجنزيا Magnesia (١٨٩) وانتصر الرومان نصراً كان بداية الفتوح التي شملت بلاد الشرق ذى الصبغة اليونانية . وزحفت الجيوش الرومانية نحو الشمال وردوا الغالين إلى جلاشيا Jalatia (الأناضول) وكانوا من قبل يهددون برجوم وحمد لهم اليونان سكان الجزائر الأيونية حسن صنعهم هذا .

لكن اليونان في أوربا لم يعجبهم هذا العمل لقد أضحت الجيوش الرومانية تحيط ببلاد اليونان من الشرق والغرب ، وإن كانت لم تطأ بعد أرضها ، ولقد حررت رومة اليونان من عدوهم ولكنها اشترطت أن يضعوا حداً لحرب الطبقات والحروب الخارجية . غير أن حياة الحرية بغير حرب كانت حياة جديدة شاقة على دول المدن التي تتكون منها هلاس ، وكانت الطبقات العليا تتوق إلى فرض سلطانها السياسي على المدن المجاورة لبلادها ، كما أن الطبقات الفقيرة أخذت تتهم رومة بأنها أينما حلت تعين الأغنياء على الفقراء . وكانت نتيجة هذه العوامل مجتمعة أن عقد پرسسيوس Perseus بن فليپ الخامس وخليفته على عرش مقدونية حلفاً مع سلوقس الرابع Seleucus IV ومع أهل جزيرة رودس ، وأهاب باليونان في عام ١٧١ أن يثوروا معه على رومة ، ولكن لوسيوس إيمليوس پولس ابن القنصل الروماني الذي قتل في معركة كاني هزم پرسسيوس في يدنا Pydne بعد ثلاث سنين من ذلك العام ، وخرب سبعين مدينة مقدونية ، وأسر پرسسيوس نفسه وسار به مصفداً يزين موكب نصره في شوارع رومة - وعوقبت رودس بتحرير كل المدن الآسيوية التي كانت تؤدي إليها الخراج ، وبإنشاء ميناء منافس لها في ديلوس . وقبض على ألف

من اليونان ومنهم المؤرخ پوليبوس Polybius واتخذوا رهائن في إيطاليا ، وظلوا في النفي ستة عشر عاماً مات منهم في خلالها سبعمائة (*) .

وسارت العلاقات بين اليونان والرومان خلال العشرة الأعوام التالية سيرا حثيثاً نحو العداوة السافرة : ذلك أن المدن والأحزاب والطبقات المتنافسة في بلاد اليونان بلحأت إلى مجلس الشيوخ في رومة تطلب إليه العون ، وهيأت لرومة بطاها هنا سبيلاً للتدخل انتهى بأن أضحت بلاد اليونان خاضعة خضوعاً فعلياً إلى رومة وإن ظلت بالاسم حرة مستقلة .

ولم يستطع أشياع سيبو وأسرته في مجلس الشيوخ أن يصمدوا أمام الواقعيين الذين كانوا يشعرون أن النظام والسلام لا يستتبان في بلاد اليونان إلا إذا خضعت خضوعاً كاملاً لحكم الرومان . وبينما كان النزاع قائماً بين رومة من جهة وقرطاجنة وأسبانيا من جهة أخرى خرجت مدائن الحلف الآخر على رومة وثارَت مطالبة بحريتها ، وتزعَم الحركة زعماء للطبقات الفقيرة ، فحرروا العبيد وسلحوهم ، وأجلوا الوفاء بالديون ، وأشعلوا مع الحرب نار الثورة في البلاد . ولما دخل الرومان يقودهم موميوس Mummius بلاد اليونان وجدوا أهلها منقسمين على أنفسهم ،

(*) وقد وجه پواوس Paulus ، وهو سائر إلى هذه الحرب ، تحيته المشهورة إلى الهواة الحبيرين في الفنون الحربية والتي قال فيها : « إن في المناصب العامة جميعها ، وفي الأحزاب الخاصة : رجالاً يعرفون أين يجب أن تحشد الجيوش في مقدونية ، وأي النقط الحربية ذات المنفعة يجب أن تحتلها جيوشنا ... وهم لا يكتفون بأن يقرروا ما يجب علينا أن نفعله ، ولكنهم يتجاوزون ذلك إلى السخرية من القنصل إذا ما استقر الرأي على شيء لا يتفق مع آرائهم ، سخرية لا تقل عن اتهامه بالخيانة ... وهذا عمل يعطل سير الحرب إلى غايتها المرجوة تعطيلاً خطيراً ... فإذا كان (أحد منكم) يحس بان في وسمه أن يسدى إلى النصيح السيد فليسر معي إلى مقدونية ... أما إذا ظن أنه لا يطيق هذا السير فمليه ألا يعمل عمل المرشدين في البحار وهو على ظهر الأرض (٢) » .

وكان من السهل عليهم أن يهزموا الجيوش اليونانية غير المدربة وحرق موميوس كورنثة Corinth وذبح رجالها وباع نساءها وأطفالها ببيع الرقيق ، ولم يكن يترك فيها شيئاً من الثروة المنقولة أو الآثار الفنية بل نقلها كلها تقريباً إلى رومة ، وأصبحت مقدونية وبلاد اليونان من ذلك الحين ولاية تابعة لرومة يحكمها حاكم روماني ، وكانت أثينا واسبارطة هما المدينتين الوحيدتين اللتين سمحت لهما رومة بأن تحتفظا بشرائعهما . واختفت اليونان من تاريخ العالم السياسي مدى ألفي عام .

الفصل الثاني

تبدل أحوال رومة

ونمت الإمبراطورية الرومانية نمواً تدريجياً ، ولم يكن معظم هذا النماء نتيجة خطة موصوعة عن قصد وتدبير ، بل كان الدافع إليه ضغط الظروف وتراجع الحدود تراجعاً يتطلبه سلامة البلاد . فقد أخضعت الفيالق الرومانية مرة أخرى بلاد غالة الجنوبية في معركة كرمونا Cremona (٢٠٠) وموتينا (١٩٣) ، ودفعت حدود إيطاليا الشمالية حتى أوصاتها إلى جبال الألب ؛ كذلك كان لا بد لرومة أن تحتفظ بسيطرتها على أسبانيا بعد أن استعادتها من قرطاجنة كيلا تعود هذه إلى الاستيلاء عليها ، هذا إلى ما في تلك البلاد من ثروة معدنية عظيمة تشمل الحديد والفضة والذهب . وقد فرض عليها مجلس الشيوخ جزية سنوية باهظة من المعادن الغفل والنقود ، وكان حكامها الرومان يعوضون أنفسهم تعويضاً سخياً عن السنة التي يقضونها فيها بعيدين عن موطنهم . وحسبنا أن نذكر دليلاً على هذا أن كونتس منوسيوس Quintus Minucius ، لما عاد إلى رومة بعد فترة قصيرة فضاها قنصلاً في أسبانيا ، جاء إليها بأربعة وثلاثين ألفاً وثمانمائة رطل وخمسة وثلاثين ألف دينار من الفضة ؛ وكان الأسبان يجندون في الجيش الروماني فكان منهم أربعون ألفاً في القوة التي استولى بها سيبو إيميليانوس Scipio Aemilianus على نومانتيا Numantia الأسبانية . ولما ثارت على الحكم الروماني ثورة عنيفة في عام ١٩٥ ق م أخضعها ماركس كاتو Marcus Cato ولكنه جرى في إخضاعها على سنة الرومان الأفاضل الذين كان جيلهم آخذاً في الانقراض ، فكان عادلاً رحماً . ووفق تيبيريوس سمپرونيوس جراكس Tiberius Sempronius Gracchus (١٧٩) توفيقاً مشوباً بالعطف والرأفة بين

حكاه وبين أخلاق الأهلين وحضارتهم ، واتخذ له أصدقاء من زعماء القبائل ، ووزع الأراضي على الفقراء . ولكن واحداً من خلفائه يدعى لوسيو لوكاس Lucius Lucullus (١٥١) أدخل بشروط المعاهدات التي عقدها جراكس وهاجم من غير سبب كل قبيلة يستطيع أن يجد عندها مالا يفتصبه منها ، وقتل أو استعبد آلافاً من الأسبان دون أن يكلف نفسه عناء البحث عن حجة يبرر بها هذا الاعتداء . واتبع هذه السنة نفسها ساپسيوس جلبا Sulpicius Galba (١٥٠) فاستقدم إلى معسكره سبعة آلاف من الأهلين بعد أن عقد معهم معاهدة يعلمهم فيها بأنه سيوزع عليهم بعض الأراضي ؛ فلما جاءوا أمر أعوانه بأن يحيطوا بهم ثم ذبحهم أو استرقهم . وفي عام ١٥٤ شلت قبائل لوزتانيا Lusitania (البرتغال) على رومة حرباً دامت سبع سنين ؛ وظهر بين هذه القبائل زعيم قدير يدعى فرياثوس Viriathus قوى البلية ، فارع الطول ، شجاعاً ، صبوراً ، شهماً ، نبيلاً ؛ وظل ثمانين سنين يكيل الضربات إلى كل جيش روماني يرسل لقتاله ويوقع به الهزيمة حتى ابتاع الرومان آخر الأمر من يقاتله غيلة . وصبر الكلتيريان Celtibrians الناثرون أهل أسبانيا الوسطى على الحصار في ثومانتيا خمسة عشر شهراً ، لا يتناولون من الطعام إلا جثث موتاهم ، حتى أرغمهم سديو إيمليانوس في عام ١٣٣ على التسليم . ويمكن القول بوجه عام إن السياسة التي سارت عليها الجمهورية الرومانية في أسبانيا قد بلغت من الوحشية والغدر حداً جعل ضررها برومة أكثر من فائدتها لها . وفي هذا يقول ممسن Mommsen المؤرخ الألماني « إن التاريخ كله لم يشهد حرباً تضارع هذه الحرب الأسبانية فيما انطوت عليه من ضروب الغدر والقسوة والجشع (٤) » .

وكانت الثروة المنتهبة من الولايات هي التي أمدت رومة بالمال الذي تتطلبه حياة التهلك والفسلذ والأنانية التي أشعلت نار الثورة في البلاد ، وقضت آخر الأمر على الجمهورية ؛ ذلك أن الغرامات الحربية التي فرضتها رومة على قرطاجنة

وسوريا ، والعبيد الذين سيقوا إليها من جميع ميادين النصر ، والمعادن الثمينة التي استولت عليها بعد فتح بلاد الغالة الجنوبية وأسبانيا ، والأربعمائة ألف ألف نسسترس (وهي تساوي ستين مليون ريال أمريكي) التي انتزعها من أنتيوخوس ، وپرسیوس ، والـ ٤٥٠٣ رطل من الذهب ، والـ ٢٢٠٠٠٠ رطل من الفضة التي اغتصبها مانليوس قلسو Manlius Vulso في حروبه الآسيوية ، هذه كلها وغيرها من أسباب الثراء الفجائي الذي ساقته إليها المقادير بدلت طبقات الملاك في رومة في مدى نصف قرن من الزمان (٢٠٢ - ١٤٦ ق . م) من رجال ذوى موارد وسطى مكتسبة إلى أشخاص مترفين يستمتعون بثناء ونعيم لم يعرفها قبلهم إلا الملوك . وكان الجند يعودون من هذه الغارات يجر الحقائب بالمال والأسلاب ، ولما أخذت النقود يتضاعفت مقدارها في رومة أسرع من المباني فإن أصحاب الأملاك العقارية تضاعفت ثروتهم ثلاثة أضعاف دون أن يحركوا في سبيل ذلك عضلة أو عصباً . واضمحلت الصناعة وراجت التجارة ، ولم تكن رومة في حاجة إلى إنتاج السلع ، فقد كانت تأخذ أموال العالم لتؤدي منها أثمان بضائعه . وازدادت الأعمال العامة زيادة لا عهد للرومان بها ، وأثرى منها المكاسون الذين كانوا يعيشون من العقود التي تبرمها الحكومة ، وزاد عدد أصحاب المصارف المالية وأثروا . وكانوا يصرفون فوائد عن الودائع ، ويقبضون التحاويل المالية (praescriptions) ، ويخصمون السفائح لعملائهم ، ويقترضون المال ويقترضونه ، ويستثمرون ما يتجمع لديهم من الأموال أو يديرون المشروعات المالية ، وأثروا من الربا الفاحش الذي كانوا ينزعونه بلا رحمة حتى أصبح القتائل (sector) والمرابي يعبر عنها بلفظ واحد (٧) . وهكذا أخذت رومة تخطو خطوات واسعة في أن تكون المركز المالي والسياسي - لا المركز الصناعي والتجاري - للعالم الذي يسكنه الجنس الأبيض .

وبهذه الوسائل وأمثالها انتقل الأشراف ومن يلونهم من رجال الطبقة

الوسطى بخطى واسعة من البساطة الرواقية إلى التنعم والترف الطليق ، وبلغ هذا التبدل أقصى مداه أو كاد في أيام كاتو (٢٣٤ - ١٤٩) ؛ فاتسعت البيوت ، وتناقصت الأسر ، وتسابق الناس في تأسيس دورهم بأفخم الأثاث وأغلاء ثمناً ، فأخذوا يشتررون الطنافس البابلية بأغلى الأثمان ، ويتعاون الأسرة المطعمة بالعاج أو الفضة أو الذهب ؛ وكالت الأحجار والمعادن الثمينة تتلأأ على النضد والكراسي وأجسام النساء ، وسروج الخيل . ولما قل المجهود الجسمي وزاد الثراء استبدل الناس بغذائهم القديم البسيط وجبات ثقيلة طويلة من لحوم الحيوان والطيرو وغيرهما من ألوان الطعام الشهى والتوابل والمشهيات ، وأصبحت الأطعمة النادرة المسقودة من خارج البلاد لا تخلو منها موائد ذوى المكانة فى المجتمع ومن يدعو أن لهم فيه مكانة . وحسبنا شاهداً على هذا الإسراف أن أحد كبار الموظفين قد ابتاع حيوانات بحرية فى وجبة واحدة بألف سترس ، واستورد آخر « أنشوجة » بألف وستمائة سترس للبرميل ، وابتاع ثالث كمية من البطارخ بألف ومائتى سترس ، وكان الطاهى الماهر يباع بأغلى الأثمان فى سوق النخاسة . كذلك كان شأن الشراب ، فقد انتشر وزادت مقاديره . وكان لا بد أن تكون الكؤوس كبيرة ومصنوعة من الذهب قدر المستطاع ، وقل مقدار ما يمزج به الخمر من ماء ، بل إنه كان يشرب أحياناً هلاماء على الإطلاق . وسن مجلس الشيوخ قوانين صارمة تحدد مقدار ما ينفق من الأموال على المآذب والملابس ، ولكن الشيوخ أنفسهم كانوا يتجاهلون هذه القوانين ولذلك لم يأبه بها غيرهم من الأهلىن . وفى ذلك يقول كاتو فى ألم وحسرة : « إن المواطنين لم يعودوا يستمعون النصيح لأن البيطون لا آذان هالاً » وأخذ للناس يشعرون بأنهم أفراد لا شأن للدولة بهم ، وثاروا عليها وعلى تدخلها فى شئونهم ، كما ثار الابن على أبيه ، وكما ثارت المرأة على الرجل .

وقد جرت العادة من قديم الزمان أن يقوى سلطان المرأة كلما زادت ثروة

المجتمع ؛ ذلك أنه إذا امتلأت البطون أخلى الجوع الميدان للعب ، ولذلك فشت الدعارة في رومة وانتشر اللواط حين اتصل الرومان ببلاد اليونان وبلاد آسية ، فكان كثير من الأغنياء يدفع الواحد منهم ثلثتا (٣٦٠٠ ريال أمريكي) ثمناً للغلام الوسيم ، وشكا كاتو من أن ثمن الولد الجميل يزيد على ثمن مزرعة (١٠) . على أن النساء لم يخلين الميدان لهؤلاء الغزاة اليونان والسوزيين ، فأخذن يتجمان بكل وسائل التجميل التي هيأتها لهن الثروة الجديدة ، وأصبحت الأدهان ضرورة لا غنى لهن عنها ، وشرعن يستوردن من غالة أنواعاً من الصابون تخفى لون شعرهن الأشيب وتحميله أحمر (١١) . وكان الثرى من أهل الطبقة الوسطى يتباهى بأن يزين زوجته وبناته بالملابس والجواهر الغالية ويطلقهن في المدينة يعلن عن ثروته ، وزاد شأن النساء في دور الحكم نفسها ، وفي ذلك يقول كاتو : « إن الرجال في جميع أنحاء العالم يحكمون النساء ، أما نحن الرومان الذين نحكم جميع الرجال فإن نساءنا يحكمننا (١٢) » . وحدث في عام ١٩٥ ق . م أن خرجت نساء رومة الحرائر إلى السوق العامة ونادين بإلغاء قانون أپيوس Appius الصادر في عام ٢١٥ والذي يحرم على النساء التحلى بالذهب والملابس الكثيرة الألوان وركوب العربات . وأندر كاتو الرومان بأن رومة سيحل بها الخراب إذا ألغى هذا القانون ، وينطقه ليفي بهذه الخطبة التي قرأها كل جيل من الأجيال من ذلك الوقت إلى هذه الأيام :

« لو أننا كلنا قد استمسكنا في بيوتنا بحقوق الأزواج وسلطانهم ، لما تورطنا الآن في هذه المشاكل مع نساتنا . أما ونحن لم نستمسك بهذه الحقوق وهذا السلطان فإن نفوذنا الذي قضى عليه استبداد النساء في البيت قد وطئته الأقدام وقضى عليه هنا في السوق ... ألا فلتذكروا جميع النظم والقوانين الخاصة بالنساء ، والتي حاول بها آباؤنا أن يقللوا من فجورهن ويجعلوا منهن زوجات طائعات لأزواجهن ؛ ومع ذلك فإنكم رغم هذه القيود لا تستطيعون أن تكبحوا جماههن .

فما بالكم إذا ما تساوين بأزواجهن ؟ هل تظنون أنكم في هذه الحال ستطبقونهن ؟ إن الساعة التي يصبحن فيها مساويات لكم متكون هي الساعة التي يصرن فيها ذوات الأمر والنهي عليكم» (١٣) . وسخر منه النساء والأزمنة الصمت وأصررن على طلبهن حتى ألغى القانون . وانتقم كاتو لنفسه وهو رقيب بأن زاد الضرائب المفروضة على السلع التي يحرمها قانون أبيوس إلى عشرة أضعاف ما كانت عليه . ولكن التيار كان جارفاً ، ولم يكن في وسع أحد أن يصدده ، فألغيت القوانين الأخرى التي كانت تحد من حرية النساء أو عدلت أو أغفلت ؛ فأصبح للنساء الحق المطلق في الإشراف على استثمار هائتاتهن ، وصرن يطلقن أزواجهن أو يجرعنهم السم في بعض الأحيان ، وبدا لمن أن ليس من سداد الرأي أن يلدن الأبناء في عصر ازدهت فيه المدن بالسكان وكثرت فيه حروب الفتح والاستعمار .

وكان كاتو وپوليبيوس قد أدركا في عام ١٦٠ ق . م أن السكان يتناقصون ، وأن الدولة عاجزة عن أن تجند من الجيوش ما استطاعت أن تجنده لقتال هنيبال ، وورث الجيل سيادة العالم ، ولكنه لم يجد لديه من الوقت أو الرغبة ما يستطيع بهما أن يدافع عنه ؛ ذلك أن الاستعداد لتلبية فداء الحرب كلما دعا لها الداعي ، وهو الاستعداد الذي كان من خصائص الملك الروماني ، لم يعد له وجود ، بعد أن تركزت الملكية في أيدي أسر قلائل ، وغضت أقدر أحياء رومة بالصعاليك الذين لا مصلحة لهم في البلاد يخافون عليها أو يدافعون عنها وأصبح الناس شجعاناً بالنيابة إن صح هذا التعبير . فقد كانوا يهرعون إلى المدرجات ليشاهدوا الألعاب التي تجري فيها الدماء ، وكانوا يستأجرون المجالدين ليصطرعوا أمامهم في ولائهم . وأنشئت مدارس للبنين والبنات يتعلم فيها كلا الشبان والشابات الغناء والموسيقى والمشي الرشيق (١٤) . ورقت طباع الطبقات العليا بعد أن فسدت أخلاقها ؛ أما الطبقات الدنيا فقد ظلت طباعها غليظة خشنة قوية ، وكانت وسائل هوها في الغالب عنيفة ولغتها بذيئة . وإنا لذشم رائحة هذه البذاءة في پلوتس Plautus

وندرك السبب في أن الجواهر كانت لا تطبق مشاهدة مسرحيات ترنس Terence ه ولما أن حاولت فرقة من الموسيقيين أن تعزف في أحد مواكب النصر في عام ١٦٧ أرغم النظارة أولئك الموسيقيين على أن يستبدلوا بعزفهم مباراة في الملاكمة (١٥).

وسيطرت النزعة التجارية على الطبقات الوسطى المطردة الزيادة ، ولم يعد أساس ثرائها هو العقار كما كان من قبل ، بل أصبح هذا الأساس هو الاستثمار التجاري أو إدارة الأعمال التجارية . ولم يكن في وسع القانون الأخلاقي القديم أو في وسع حفنة من الرجال من طراز كاتو أن يحولوا بين هذا العهد الجديد عهد رووس الأموال المتحركة أن يصبغ الحياة الرومانية كلها بصبغته . فكان كل إنسان يسعى جاهداً للحصول على المال ، وكان كل إنسان يقدر ويقدر غيره بما عنده من المال ، وكان المتعاقدون على الأعمال يغشون ويخدعون ، وبلغ من غشهم وخداعهم أن تخلت الحكومة عن كثير من أملاكها - كمناجم مقدونية - لأن المتعاقدين معها على استغلالها كانوا يسخرون العمال ويبزون أموال الدولة ابتزازاً أصبحت معه المشروعات مصدر بلاء للدولة لا مورد ربح لها (١٦) . وتخلق الأشراف بالخلق الجديد ، وشاركوا غيرهم في الثروة الجديدة - إذا جاز لنا أن نصدق أقوال المؤرخين ، ومن واجبتنا ألا نصدقهم - بعد أن كانوا من قبل يرون أن الشرف أعلى قدراً من الحياة . وأصبحوا لا يفكرون في الأمة ، بل يفكرون في امتيازاتهم ومطالبهم الطائفية والفردية ، وصاروا يقبلون الهدايا والرشا الكبيرة لكي يمنحوا عطفهم على الأفراد والدول ، وما أسهل ما كانوا يجدون سبباً لشن الحرب على البلاد التي فيها من الثروة أكثر مما فيها من القوة . وكان الأشراف يعترضون العامة في الطرقات ويستجدونهم أصواتهم أو يبتاعونها منهم ، وأصبح من الأمور المألوفة أن يختلس الحكام الأموال العامة كما أصبح من غير المألوف أن يحاكم هؤلاء على ما يختلسون

منها . ومنذا الذي يعاقب اللصوص من زملائه إذا كان نصف أعضاء مجلس الشيوخ قد ائتمروا على خرق المعاهدات ، وسرقة الأحلاف ، وانتهاج اللولايات ؟ وفي ذلك يقول كاتو : « من يسرق مال مواطن يقضى بقية أيامه مكبلاً بالسلاسل والأغلال ؛ ولكن من يسرق مال المجتمع يقضى بقية أيامه رافلاً في أفخر الثياب ومتحلياً بالذهب الوهاج » (١٧) .

ومع هذا فإن منزلة مجلس الشيوخ قد علت عما كانت عليه من قبل ، ذلك بأن رومة بقيادته قد خرجت ظافرة من الحربين البونيتين ومن الحرب المقدونية الثلاث ، وتحدت كل منافسيها ، وتغلبت عليهم ، وكسبت صداقة مصر ، وبسطت عليها نفوذها ، واستولت على جزء كبير من ثروة العالم أمكنها به أن ترفع عن إيطاليا كلها في عام ١٤٦ عبء الضرائب المباشرة . وقد اغتصب مجلس الشيوخ في خلال أزمنة الحرب والسياسة كثيراً من اختصاصات الجمعيات والحكام ، ولكن النصر الذي نالته رومة قد برر هذا الاغتصاب ؛ وفوق هذا فإن تحول البلاد إلى إمبراطورية متسعة الرقعة قد جعل الجمعية أداة سمجة غير صالحة للحكم ؛ ذلك أن الشعوب الثائرة التي خضعت وقتئذ لحكم مجلس شيوخ كثرة أعضائه من الساسة المحنكين والقواد الظافرين ، لم يكونوا يقبلون أن يتصرف في شئونهم بضعة آلاف من الإيطاليين الذين يستطيعون حضور الجمعيات الوطنية في رومة . إن الحرية لأساس الديمقراطية ، والنظام أساس الحرب ، وكلاهما لا وجود له مع الآخر . ذلك أن الحرب تتطلب قدراً عظيماً من الذكاء والشجاعة ، والحزم والسرعة في اتخاذ القرارات ، والعمل الجماعي المتحد ، والطاعة العاجلة لأوامر الرؤساء ؛ ومن أجل هذا قضت كثرة الحروب على الديمقراطية ، وكان القانون ينص على أن من حق الجمعية المثوية وحدها أن تعلن الحرب وتعقد الصلح ؛ ولكن مجلس الشيوخ كان يستطيع بما له من حق الهيمنة على صلات الدولة الخارجية أن يدفع الأمور إلى حيث لا تجتد الجمعية مناصاً من الخضوع لرأيه (١٨) . وكان مجلس الشيوخ هو المشرف على خزانة الدولة ، كما كان هو المسيطر على

الشئون القضائية ، وذلك بحكم القاعدة المتبعة من قديم الزمن وهي أن جميع المناصب القضائية الهامة كان يختار شاغلوها من أعضاء المجلس أو المرشحين لعضويته ، يضاف إلى هذا كله أن وضع القوانين وشرحها كانا من اختصاص طبقة الأشراف .

وكان في داخل هذه الأرستقراطية الجركية محصورة في الأسر ذات السلطان ، ذلك أن التاريخ الروماني قد ظل إلى عهد صلا Sulla سجلا لأعمال الأسر لا أعمال الأفراد ؛ فلما نرى فيه أسماء ساسة عظام بارزين ولكننا نرى جيلا في إثر جيل أسماء بعينها تشغل أعلى مناصب الدولة ؛ ترى من بين مائتي قنصل شغلوا هذا المنصب الخطير بين عامي ٢٣٣ ، ١٣٣ ق . م مائة وتسعة وخمسين ينتمون إلى ست وعشرين أسرة ، ومائة ينتمون إلى عشرة أسر . وكانت أقوى أسرة في ذلك العهد هي آل كورنيليوس Cornelius . وليس تاريخ رومة الحربى والسياسى من أيام بيلبوس كورنيليوس سيپيو Publius Cornelius Scipio الذى خسر معركة تريبيا Trebia في عام ٢١٨ أيام ولده سيپيو الإفريقي قاهر هنيبال وأيام حفيد ثانيهما وتبناه سيپيو إيميليانوس الذى دمر قرطاجنة في عام ١٤٦ ، نقول ليس تاريخ رومة الحربى والسياسى طوال ذلك العهد في جملته إلا تاريخ هذه الأسرة ، ولقد بدأت الثورة التى قضت على طبقة الأشراف على يد ابنى جراكس وهما حفيدا إيميليانوس . ولقد أصبح سيپيو الإفريقي بعد انتصاره في واقعة زاما التى أنجت رومة من الدمار محبباً لجميع الطبقات ، وظلت رومة فترة من الزمان على استعداد لأن تمنحه أى منصب يرغب فيه ،

فلما أن عاد هو وأخوه لوسيوس Lucius من ميدان القتال في آسية (١٨٧) طلب أشياخ كاتو أن يعرض على المجلس حساب الهرامة الحربية التى أداها إليه أنتيونخوس ليعث بها إلى رومة ، وأبى سيپيو الإفريقي أن يجيب أخوه هذا الطلب ، ومزق سجلات الحساب أمام مجلس الشيوخ ، وحوكم

لوسيروس أمام الجمعية وحكم عليه بأنه اغتصب الأموال العامة ، ولم ينجح من العقاب إلا رفض التربيون تيبيريوس سمپرونيوس جراكس **Tiberius Sempronius Gracchus** زوج ابنة سيو الإفريقي أن يجيز هذا العقاب بما له من حق الرفض . واستدعى سيو الإفريقي إلى المحاكمة فما كان منه إلا أن عطل الإجراءات القضائية بأن دعا الجمعية وسار أمام أعضائها إلى هيكل چوپتر للاحتفال بذكرى معركة زاما . ولما دعى مرة ثانية أبي أن يجيب الدعوة وسافر إلى ضيعته في لیترونوم **Liternum** وبقى فيها بقية أيامه لا يجرؤ أحد على أن يمسه بسوء ؛ وكان يقابل هذه النزعة الفردية في السياسة نمو الفردية في التجارة وفي الأخلاق . وما لبثت الجمهورية الرومانية أن قضى عليها نشاط عطاء رجالها وجهودهم الطليقة من جميع القيود

وقد رفع من شأن الأرستقراطية ومن شأن هذا العهد كله ، ما سرى في نفوس تلك الطبقة من تقدير للجمال . ذلك أن اتصال الرومان بالثقافة اليونانية في إيطاليا وصقلية وآسية قد جعلهم على علم بكل مستازمات الحياة المترفة ، وبكل ثمار الفنون الجميلة في العالم القديم . ولما عاد الفاتحون إلى بلادهم جاءوا معهم بكثير مما اشتهر في أنحاء العالم من روائع الصور الملونة ، والتماثيل ، والكؤوس ، والمرايا ، والمعادن المنقوشة ، والمنسوجات الغالية ، والأثاث الثمين . وقد ارتاع الجيل القديم حين رأى مرسلس **Marcellus** يزين الميادين الرومانية بالتماثيل التي اغتصبها من سرقوسة . ولم يكن ما يشكو منه أهل ذلك الجيل اغتصاب قائدهم لهذه التماثيل ، بل كانوا يشكون « البطانة ولغو الحديث » اللذين أصبحا عادة لازمة للمواطنين المحجدين الذين يقفون الآن « ليفحصوا عن السفاسف وينتقدوها (١٩) » . واغتصب فلقيوس **Fulvius** ١٠١٥ تمثالا من مجموعة تماثيل پرس **pyrrhus** في أمبراشيا **Ambracia** . وشحن إيمليوس پولس خمسين غربة في موكب نصره بالكنوز الفنية التي استولى عليها من بلاد اليونان ضمن ما استولى عليه منها نظير تحريرها . وفعل هذا الفعل نفسه صلا **Sulla** ، وفريس **Verres** ، ونيرون **Nero** ومثبات

غيرهم من الرومان خلال مائتي عام من تاريخ البلاد جردوا منها بلاد اليونان من روائع فنها ليكتسى بها العقل الرومانى .

وظفى هذا الغزو على الفن الإيطالى فنبد صفاته الأصلية ، وطرازه الوطنى واستسلم بأجمعه - إلا فى شىء واحد - إلى الفنانين اليونان وإلى الموضوعات والأشكال اليونانية . وأقبل المثالون ، والمصورون ، والمهندسون اليونان إلى رومة حيث كان الذهب يتدفق فى جيوبهم ، وما لبسوا أن صبغوا عاصمة فاتحى بلادهم بالصبغة اليونانية . وشرع سراة الرومان يشيدون قصورهم على الطراز الرومانى حول فناء غير مسقوف ، ويزينونها بالعمد ، والتماثيل ، والصور اليونانية ، وبالآثاث اليونانى . أما الهياكل فقد تحولت على مهل حتى لا تغضب الآلهة من هذا التحول وبقي جسم الهيكل القصير والقاعدة المرتفعة للتماثيل - وهما من مميزات الفن التस्कانى - القاعدة المتبعة فى بناء الهياكل ونحت التماثيل . فلما أن زاد عدد الآلهة الأولمبية ، رأى الرومان أن من حق تلك الآلهة أن تبني بيوتها على الطراز الهلبنى الرفيع . غير أن الفن الرومانى قد ظل فى ناحية واحدة جوهرية يعبر بوسائله الخاصة وبقوته الفذة عن الروح الإيطالية الفنية ، وإن ظل يسترشد بالفن اليونانى . أما فيما عدا هذا فقد استبدل المهندسون الرومان القوس بالعارضة الراكزة على الأعمدة فى الأبنية التى خلدوا بها نصرهم أو زينوا بها دورهم ، وفى القنوات التى تجر الماء لدورهم وفى أبنية محاكمهم . وعلى هذا النحو شاد كاتو من الحجارة فى عام ١٨٤ الدار المعروفة باسم باسلكا پورشيا *Bacilica portia* ، وبعد خمس سنين من ذلك العام شاد إيميلوس پولس باسلكا إيميليا *Bacilica Aemilia* فى صورتها الأولى التى أصلحها فيما بعد أبناؤه وأحفاده جيلا بعد جيل ، وجعلوها أحسن تجميل (*) . وكانت الباساكا الرومانية النموذجية

(*) وكانت الباساكا تطبيقاً من جانب اليونان للعقود على هندسة القصور الفارسية والأبهاء المصرية ذات السقف المرتكزة على العمد . وكانت ديبلوس وسرقوسة قد أقامتا مثل هذه المباني فى القرن الثالث قبل الميلاد .

داراً تقام لتصريف الأعمال التجارية والقضائية ، وتتألف من بناء في شكل مستطيل طويل يقسمها إلى ممشى وأفنية صفان من الأعمدة الداخلية ، يعلوها في العادة سقف في صورة قبة مصندقة ، وهو طراز أخذ في الأصل من الإسكندرية (٢٠) . وإذا كان الممشى مرتفعاً عن الأفنية فقد كان من المستطاع حفر شبكة من الفتحات في الحجارة فوق كل فناء يدخل منها الضوء والهواء ، ذلك بطبيعة الحال هو الشكل الأساسي للجزء الداخلي من الكنائس الكبرى في العصور الوسطى ، وبهذه الصروح الضخمة شرعت رومة تتخذ لنفسها مظهر القوة والفخامة الذي امتازت به في مستقبل أيامها حتى بعد أن لم تكن عاصمة العالم كله .

الفصل الثالث

الآلهة الجدد

ترى ماذا كان شأن الآلهة القديمة في ذلك العهد ، عهد التحول السريع الذي لا يبتى ولا يندز ؟ يلوح أن شيئاً من الكفر بهذه الآلهة قد سرى من الأشراف إلى عامة الشعب ، وإلا فكيف يرضى شعب لا يزال يؤمن بالآلهة القديمة عن هذه المسرحيات الهزلية التي يسخر فيها بلوتس *plautus* - مهما كانت حجته في أنه إنما يحاكي النماذج اليونانية - من أعمال جوبيتر مع ألكمينا *Alcmena* ، ويجعل من عطارده مهرجا ضحكة ، ثم هو لا يرضى عن هذا فحسب بل يحيى هذه المشاهد بالصخب والضجيج . إن كاتو نفسه وهو الحريص على العادات القديمة ، كان يعجب من قدرة اثنين من العرافين إذا التقيا على ألا يسخر كلاهما من الآخر (٢١) . لقد طالما خضع هؤلاء العرافون لأساليب الختل السياسية ، وكثيراً ما كان الفأل والطيرة ينطق بهما لتكليف الرأي العام كما يهوى الزعماء ، وكثيراً ما كانت أصوات الشعب في الاقتراع على أمر من الأمور تكفيها وسائل التهريج والشعوذة الدينية . واطالما رضى الدين بأن يُحوَّل استغلال الشعب إلى واجب مقدس تتطلبه الآلهة .

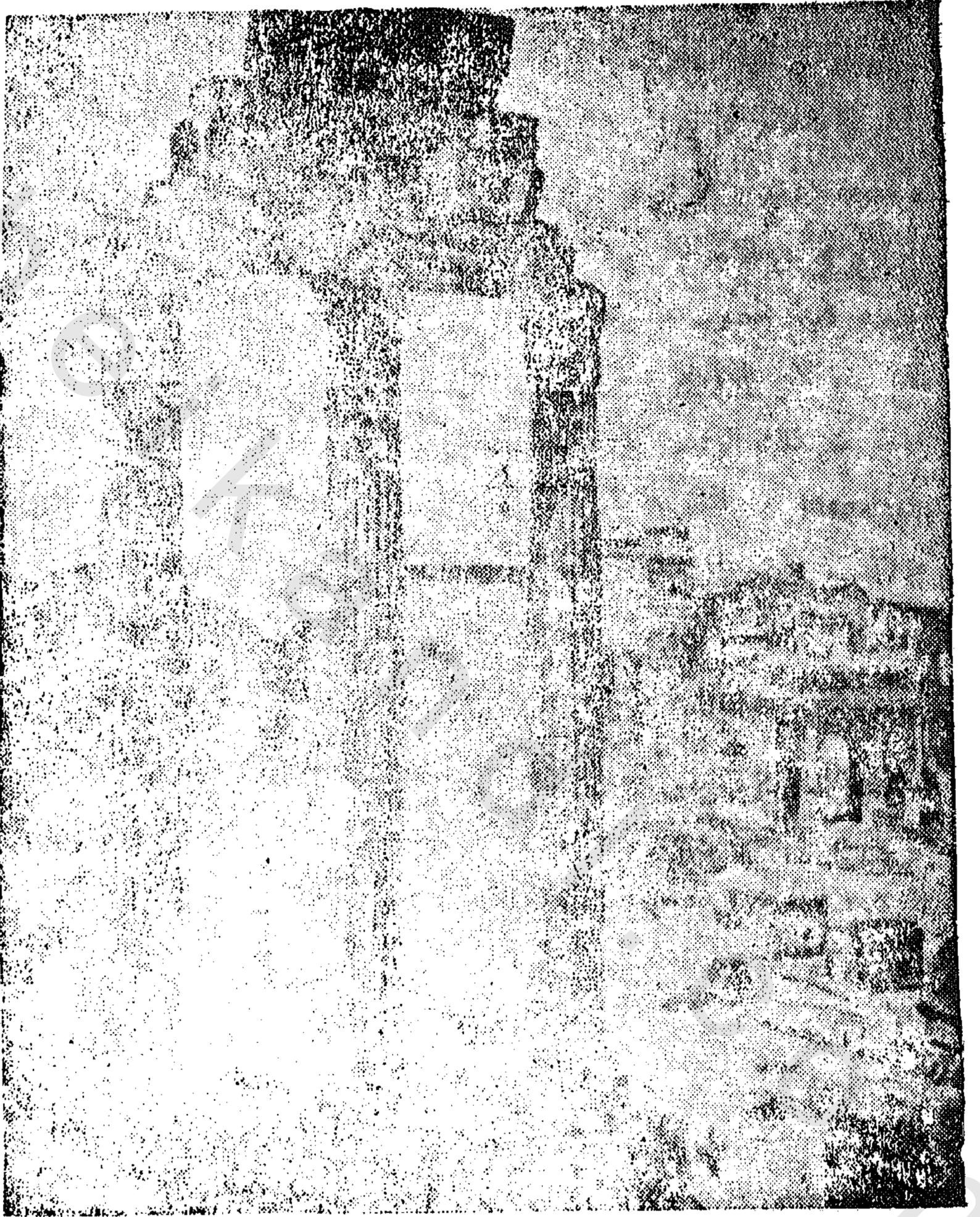
ولقد كان من الدلالات السيئة أن يكتب بوليبيوس حوالي عام ١٥٠ ق . م ، بعد أن عاش سبعة عشر عاماً في أرقى المجتمعات في رومة ، ما يستدل منه على أن الدين الروماني لم يكن إلا أداة طبيعة من أدوات الحكم :

« إنى أرى أرى أن الميزة التي تمتاز بها الجمهورية الرومانية ، والتي ترفع من درها فوق سائر بلاد العالم ، إنما هي طبيعة دينها ، ذلك أن ما يعد عند الأمم الأخرى عيباً من العيوب وسبباً في الأعقاب - وهو الخرافات - هو نفسه

العامل الأكبر في تماسك الدولة الرومانية . فهذه الشئون تكتسى بثوب من الأبهة والفخامة ، وتسرى في الحياة الخاصة والعامه صرياناً لا يضارعها فيه غيره من الأديان ويقيني أن الحكومة قد نهجت هذا النهج لخير الشعب . ولو أنه كان مستطاعاً إقامة دولة كل رجالها من الحكماء ، لما كان هذا النهج واجباً محتوماً . ولكن الجماهير كلها بلا استثناء متقلبة الأهواء لا تثبت على حال ، تملأ قلوبها الرغبات الطليقة التي لا تقيد بقانون ، والشهوات التي لا تخضع لحكم العقل ، والانفعالات العنيفة ؛ ومن أجل هذا كان لا بد من وجود أسباب للإرهاب لا تراها العين ، ومواكب ومظاهر دينية فخمة تمسك هذه الجماهير ببعضها ببعض . »

ولعله كان في وسع پولبيوس أن يؤيد قوله هذا بحوادث في أيامه تثبت أن الخرافات لا تزال هي المسيطرة على عقول الرومان ، على الرغم من بلوتس وعلى الرغم من الفلسفة . من ذلك أنه لما حلت بالرومان كارثة كاني Cannae ، ولاح أن رومة لن يعصمها عاصم من هنيبال ، استولى الرعب على الشعب الروماني المهتاج ونادى : « أي إله نرتجيه لينجى رومة من البلاء الذي هي فيه ؟ »

وحاول مجلس الشيوخ أن يسكن هذا الذعر بالتضحية البشرية ، ثم بالصلاة إلى الآلهة اليونانية ، ثم باستخدام الطقوس اليونانية في عبادة الآلهة كلها الرومانية منها واليونانية على السواء . ثم قرر المجلس في آخر الأمر أنه إذا كان قد عجز عن القضاء على الخرافات فإنه سينظمها وسيسيطر عليها . من ذلك أنه أعلن في عام ٢٠٥ أن الكتب السبيلية Sibylline تنبئ بأن هنيبال سيغادر إيطاليا إذا جرى بالأمر الكبرى Magna Mater - وهي صورة من الإلهة سيبييل Cybele - من پسينس pessinus في فريجيا Phrygia إلى رومة . ووافق على ذلك أتالس Attalus ملك برجموم ونقل الحجر الأسود الذي كان في اعتقادهم جسد الأم الكبرى إلى أستيا حيث استقبله سيبو الإفريقي وطائفة من فضليات



(شكل ٨) هيكل كاسترو ديلكس في السوق الرومانية

obeyikanda.com

السيدات بمظاهر التكريم . ولما أن ارتطمت السفينة التي كانت تحمله بطين نهر التير رفعتها العذراء كلوديا القستية ، وجرتها في النهر صعداً إلى رومة بما للعفة من قوة سحرية ، ثم أمسكت السيدات جميعهن كل واحدة بعد الأخرى بالحجر في يدها وحملته في موكب رهيب إلى هيكل النصر ، وأخذ الأهلون الأتقياء يحرقون البخور أمام بيوتهم أثناء مرور الأم الكبرى . وارتاع مجلس الشيوخ حين وجد أن المعبود الحديد لا بد أن يقوم علي خدمته كهنة ينحسبون أنفسهم . وكان من المستطاع العثور على رجال يقبلون هذا ، ولكن الرومان لم يكن يسمح لهم بأن يكونوا من بينهم . وشرعت رومة من ذلك الوقت تحتفل في شهر إبريل من كل عام بعيد الآلهة الكبرى Magalesia ، واتخذ الاحتفال في بادئ الأمر صورة الحزن العنيف ، ثم انقلب بعدئذ إلى المرح العنيف . ذلك أن سيبل كانت إلهة نباتية ، وتروى الأساطير أن ابنها أتيس Attis رمز الخريف والربيع مات وانتقل إلى الجحيم Hades ، ثم عاد إلى الحياة من بين الأموات .

وغادر هنيبال إيطاليا في عام ٢٠٥ ، وهنا مجلس الشيوخ نفسه على الطريقة التي اتبعها في علاج الأزمة الدينية ، ولكن الحروب التي دارت مع مقدونية قد فتحت لرومة أبواب اليونان والشرق . وقد جاء أثر الجنود اللذين عادوا بأسلاب الشرق وأفكاره وأساطيره أفواج من الأسرى اليونان والأسبوين ، ومن الرقيق واللاجئين ، والتجار والسياح ، والرياضيين والفنانين والممثلين والموسيقيين ، والمدرسين والمحاضرين ، والناس إذا هاجروا جاءوا معهم بآلهتهم . واغتنبت الطبقات الدنيا في رومة بما عرفتته عن ديونيسس باخوس Dionysus Bacchus ؛ وأرفيوس Orpheus ويريديس Eurydice ، والطقوس الغامضة الخفية وهي في اعتقادهم مصدر الإيجاء الإلهي ، والحمير القدسي ، والاتصال الروحي ، الذي يكشف عن الآلهة التي تبعث حياة وتعيد عبادها الخلود . وارتاع مجلس الشيوخ في عام ١٨٦ حين علم أن من الشعب أقلية كبيرة قد اعتنقت الطقوس الديونيسية ،

وأن الإله الحديد تقام له حفلات تدار فيها كوؤوس الخمر على المحتفلين .
وإذ كانت هذه الحفلات تقام سرّاً وفي الليل فقد راجت الإشاعات القائلة
بأنها كانت حفلات حمراء يصحبها الخمر والفجور الطليق ، وقد وصفها ليفي
بقوله : « إن الفسق بالرجال كان أكثر من الفسق بالنساء » ، ثم يقول
بعد هذا - ولعله في ذلك ينزل لغو القول منزلة التاريخ المحقق : « ومن لم
يكن يرضى بالدنس . . . كان يضحى به قرباناً للإله » (٣) . وحرّم مجلس
الشيوخ هذه الطقوس الدينية ؛ وقبض على سبعة آلاف من القائمين بها ،
وقضى بإعدام مئات منهم . وكان هذا نصراً مؤقتاً في الحرب العوان التي
خاضت رومة غمارها لصد تيار الأديان الشرقية (*) .

(•) بريد أديان اليونان .

الفصل الرابع

بداية عصر الفلسفة

كانت الطريقة التي غزت بها بلاد اليونان رومة أن بعثت إلى عامتها بالدين اليوناني والمسرحيات الهزلية اليونانية ، وإلى الطبقات العليا من أبنائها بالأخلاق وبالفلسفة اليونانية . واثمرت هذه الهدايا اليونانية مع الثروة الرومانية ومع الإمبراطورية الرومانية على تقويض دعائم دين رومة وأخلاقها ، وكان هذا إحدى السبل التي اتبعتها هلاس في انتقامها الطويل المدى من غزاتها . وبلغ هذا الغزو غايته في الفلسفة اليونانية من أبيقورية لكريشيوس الرواقية إلى رواقية سنكا الأبيقورية . وفي الدين المسيحي غلبت فلسفة ما وراء الطبيعة اليونانية الآلهة الإيطالية ، ولما نشأت القسطنطينية كانت الغلبة فيها للثقافة اليونانية ، فنافست في بادئ الأمر الثقافة الرومانية ، ثم حلت في آخر الأمر محلها ؛ ولما أن سقطت القسطنطينية عادت الآداب والفلسفة والفنون اليونانية فغزت إيطاليا وأورها كلها في عصر النهضة . ذلك هو المجرى الرئيس في تاريخ الحضارة الأوروبية ، أما ما عداه فتيارات فرعية وروافد جانبية . وفي ذلك يقول شيشرون : لم يكن منشأ الفيض الذي أقبل من بلاد اليونان إلى مدينتنا مجرى صغيراً بل كان منشؤه نهراً خضياً من الثقافة والعلم» (٢٤) ، أصبحت حياة رومة الذهنية والفنية والدينية من بعده جزءاً من العالم المصطنع بالصبغة الهلينية (*) .

ووجد الغزاة اليونان في مدارس رومة وقاعات المحاضرات فيها ثغرة طيبة ينفذون منها إلى رومة ، وموقعاً صالحاً يثبتون فيه أقدامهم . فجاء في أعقاب

(*) من أقوال هوراس ذلك القول الذي ملت الأذن سماعه « أسرت بلاد اليونان

المنلوبية غالبها المسمى ١٢٤ »

الجيش الرومانية التي عادت من بلاد الشرق تيار دافق من « اليونان الصغار » Graeculi كما كان يسميهم الرومان استهزاء بهم . وكان منهم أرقاء كثيرون استخدموا معلمين في الأسر الرومانية ، ومنهم النحاة الذين أنشأوا الدورات الثانوية في رومة بما افتتحوه من المدارس لتعليم لغة اليونان وآدابهم ؛ ومنهم البلغاء الذين كانوا يلقون محاضرات عامة في فن الخطابة والأدب والإنشاء والفلسفة ، أو يعطون فيها دروساً خاصة . وشرع الخطباء الرومان - حتى من كان منهم يبغض الثقافة اليونانية أمثال كاتو - يتخذون خطب لسياس **Lysias** ، وإيسكين **Aeschines** ودمستين **Demosthenes** نماذج لهم يفسجون على منوالها .

ولم يكن هؤلاء المدرسين اليونان دين يؤمنون به إلا القليلين منهم ، وأقل من هؤلاء المتدينين من كانوا يبثون في قلوب تلاميذهم شيئاً من العقيدة الدينية . وكانت منهم أقلية صغيرة تحذو حذو أبيقور ، وتسبق لكريشيس في وصفه الدين بأنه أكبر الشرور في حياة البشر . وأدرك الأشراف مهيب العاصفة وحاولوا أن يسدوا عليها الطريق ، فنتى مجلس الشيوخ من البلاد في عام ١٧٣ اثنان من الأبيقوريين ، وأصدر في عام ١٦١ قراراً يقضى بأن لا يبقى في رومة أحد من للفلاسفة أو البلغاء . ولكن العاصفة لم تسكن ، فقد جاء إلى رومة في عام ١٥٩ كراتس الملوسي **Crates of Mallus** مدير المكتبة الملكية الرواقية في بروجوم في عمل رسمي ، وكسرت فيها ساقه ، فأقام بها ، وأخذ وهو في دور النقاهة يلقي محاضرات في الأدب والفلسفة . وفي عام ١٥٥ بعثت أثينة إلى رومة سفراء من أهلها كانوا زعماء المدارس الفلسفية الثلاث العظيمة : كارنيدس **Carneades** الأكاديمي أو الأفلاطوني ، وكرتولوس **Critolaus** المشائي أو الأرسطاطيلي ، وديوجين **Diogenes** الرواق السالوسي (**of Sejuicia**) . وكان قدوم هؤلاء إلى رومة مبعث نهضة علمية وفلسفية لا تكاد تقل في قوتها عما بعثه قدوم كرسولوراس **Chrysoloras** إلى إيطاليا في عام ١٤٥٣ . وتحدث كارنيدس عن البلاغة

بفصاحة حملت الشبان على أن يجتمعوا حوله في كل يوم ليستمعوا له (٢٥) .
وكان الرجل شكاكاً إلى أقصى حد ، فكان يشك في وجود الآلهة ، ويقول
إن في الإمكان تبرير الظلم بأسباب لا تقل في وجاهتها عن الأسباب التي يبرر
بها العدل . وفي هذا تسلیم من جانب الفلسفة الأفلاطونية بآراء ترازيماكس

Thrasymachus

ولما سمع كاتو - وكان وقتئذ شيخاً طاعناً في السن - بهذا القول طالب
إلى مجلس الشيوخ أن يأمر بإعادة السفراء الثلاثة إلى بلادهم ، فعادوا ولكن
بعد أن ذاق الجيل الجديد لذة الفلسفة ؛ ومن ذلك الحين أخذ الأثرياء من
شباب رومة يذهبون إلى أثينة ورودس ليستبدلوا فيها بإيمانهم القديم أحدث
ما فيها من تشكك .

وكان الذين فتحوا بلاد اليونان هم أنفسهم الذين نشروا الثقافة اليونانية
والفلسفة اليونانية في رومة ، وكان فلامينوس Flaminus يحب الآداب
اليونانية قبل أن يغزو مقدونية ويخرب اليونان ، فلما أن غزاها تأثر كثيراً
بما رأى في بلاد اليونان من فنون ومن مسرحيات . وخلق بنا أن نذكر
لرومة أن بعض قوادها العسكريين كانوا يستطيعون فهم بوليكليتس
polycleitus وفيدياس Pheidias وإن كانوا قد تغالوا في تقدير هذين
الفنانين إلى حد السرقة . ولما أن انتصر إيمليوس پولس على پرسوس لم يستبق
لنفسه من كل ما جاء به من اللغنائم إلا مكتبة الملك ليرثها أبناؤه من بعده ،
وقد حرص على أن يتعلم هؤلاء الأبناء الآداب والفلسفة اليونانية حرصه
على أن يتعلموا فنون الصيد والحرب الرومانية ، وكان يشترك معهم في هذه
الدراسات بالقدر الذي تسمح له به واجباته الرسمية .

ولما مات پولس تبنت أصغر أبنائه صديقة ب . كرنليوس سبيو ابن
الإفريقي واتخذ الابن المتبنى اسم الرجل الذي تبناه جرياً على عادة الرومان
وقتئذ ، وأضاف إليه اسم عشيرة أبيه فأصبح اسمه بعدئذ ، كرنايوس
(١٥ - ج ١ ، مج ٣)

سپيو إيميليانوس وهو الذي سنطلق عليه اسم سپيو في صحائف هذا الكتاب ه وكان شاهاً وسيم الطلعة قوى البلية ، بسيطاً في عاداته ، متزناً في حديثه ، رقيق القلب ، كريماً ، شريفاً طاهر اليد ، ولم يترك وراءه عند وفاته إلا ثلاثة وثلاثين رطلاً من الفضة ورطلين من الذهب ، وإن كانت جميع غنائم قرطاجنة قد مرت بين يديه ، وإن كان قد عاش عيشة العالم المتكشف لا عيشة الرجل الثرى ، وقد التقى في شبابه بپوليبيوس اليونانى الذى نفى من بلاده وأسداه پوليبيوس النصيح والكتب القيمة ، وكانت هذه يد حفظها له الشاب طول حياته . وذاعت شهرته وهو لا يزال شاباً يحارب تحت إمرة أبيه فى بدنا pydna ، ولما استخف به عدوه فى أسبانيا وطلب إليه أن يبارزه قبل هذا التحدى وانتصر فى المباراة (٢٧) .

وقد جمع حوله فى حياته الخاصة طائفة من الرومان الممتازين الذين شغفوا بالأفكار اليونانية . ومن أعظم هؤلاء شهرة جايوس ليلبيوس Gaius Laelius وهو رجل حكيم فى رأيه ، وفى فى صداقته ، عادل فى أحكامه ، تقى السيرة ، طاهر السريرة ، لا يفوقه فى فصاحة اللسان وجمال الأسلوب إلا إيميليانوس نفسه . وقد أحب شيشرون ليلبيوس وأعجب به بعد مائة عام من وفاته ، وسمى باسمه مقاله عن الصداقة ، وكان يتمنى أن لم يعيش فى عصره المضطرب بل فى تلك الدائرة الرفيعة التى كانت تضم شباب رومة المفكر .

وكان لهذه الدائرة أبلغ الأثر فى الأدب الرومانى ، ولقد كسب ترنس Terence بفضل اشتراكه فيها ما امتازت به لغته من دقة فى التعبير وجمال فى الأسلوب ، ولعل جايوس لوسيلبيوس (١٨٠ - ١٠٣) قد أفاد منها قدرته على أن يجعل لهجائه اللاذع الذى كان يسلطه على رذائل عصره وترفه هدفاً اجتماعياً .

وكان اللذان يشرفان على هذه الفئة من اليونان رجلين هما پوليبيوس Polybius وپانيتيوس Panaetius . وقد عاش أولهما سنين كثيرة فى بيت سپيو . وكان رجلاً واقعياً عقلياً ، قليل الاغترار بالناس وبالذول . أما پانيتيوس فقد جاء من

رودس ، وكان كزميله پوليبوس من الأشراف اليونان . وعاش كثيراً من
السنين مع سيبو ينعم بصداقته ويشاركه في نفوذه وسلطانه . وهو الذي
غرس في نفس سيبو فضائل الرواقية ونبلها ، وأكبر الظن أن سيبو هو
الذي حمله على أن ياطف من المطالب الخلقية المتطرفة لهذه الفلسفة ، ويجعل
منها عقيدة عملية . ولقد شرح پانتيوس في كتاب له (في الواجبات)
المبدأين الأساسيين للفلسفة الرواقية وهما أن الإنسان جزء من كل يجب أن
يتعاون معه - مع أسرته ، وبلده ، ومع روح العالم القدسي ؛ وأنه لم
يوجد في العالم ليستمتع بملاذ الحواس وإنما وجد ليؤدي واجبه من غير أن
يشكو أو يتململ . ولم يكن پانتيوس كالرواقين الأولين يدعو إلى الفضيلة
الكاملة أو عدم المبالاة التامة بطيبات الحياة ومتعها . واستمسك الرومان
المتعلمون بهذه الفلسفة واتخذوها بديلاً كريماً مقبولاً من دينهم القديم الذي
لم يعودوا يؤمنون به ، ووجدوا في مبادئها قانوناً أخلاقياً يتفق كل الاتفاق
مع تقاليدهم ومثلهم العليا .

وهكذا أصبحت الرواقية هي الملهم لسيبو والمطمع الذي يصبو إليه
شيشرون ؛ كما كانت هي خير ما في سنكا ، والمرشد الهادي لتراجان
Trajan ، والمواسية لأوربايوس Aurelius . وجملة القول أنها أصبحت هي
ضمير رومة .

الفصل الخامس

النهضة الأدبية

لقد كان الغرض الذي يهدف إليه سيبو وجماعته أن يناصروا الفنون والفلسفة ، وأن يجعلوا اللغة اللاتينية لغة رقيقة سلسلة أدبية ، وأن يجتذبوا ربات الشعر الرومانية إلى ينابيع الشعر اليوناني المتدفقة ، وأن يهينوا للكتاب والشعراء الناهضين مستمعين وقراء . من ذلك أنه لما أن جاء كاتو - وهو العدو الألد لكل شيء يمثله سيبو وأكرم مثواه . وكان هذا الشاعر هو كونتس إينيوس Quintus Ennius . وكان قد ولد في عام ٢٣٩ بالقرب من برنديزيوم Brundisium من أبوين أحدهما يوناني والآخر إيطالي . وتلقى علومه في تارتم ، وكان ذا روح حماسية تأثرت أشد التأثر بالمسرحيات اليونانية التي كانت تعرض على مسرح تلك المدينة . واسترعت شجاعته العسكرية في سردينيا الثقات كاتو . ولما جاء إلى رومة أخذ يشتغل بتدريس اللغتين اليونانية واللاتينية ، وينشد أشعاره لأخصائه . وسرعان ما وجد سبيله لجماعة سيبو وأصدقائه ؛ ولم يكن ثمة بحر من بحور الشعر إلا حاوله ، وكتب عدداً قليلاً من المسالي وما لا يقل عن عشرين مأساة ، وكان يعجب بيورپديز ويعبث مثله بالأراء المتطرفة ، ويغيب الأتقياء بما ينطق به من الأمثال التهمكية الأبيقورية كقوله : « أسلم معكم أن ثمة آلهة ولكنهم لا يبالبون بما يفعله الآدميون ، وإلا لكانت عاقبة الطيبين الخير وعاقبة الخبيثين الشر - وهذا قلما يحدث (٢٨) » . ويقول شيشرون إن من استمعوا لهذا القول طربوا له وصفقوا له استحساناً (٢٩) . وقد ترجم أو شرح كتاب « التاريخ المقدس » تأليف يوهانوس Euhemerus وهو الكتاب الذي يثبت فيه كاتو أن الآلهة ليسوا إلا أبطالاً أمواتاً ألهتهم

عواطف الشعب وتعلقه بهم . على أنه لم يكن مجرداً كل التجرد من الآراء الدينية ، وآية ذلك أنه أعلن في وقت ما أن روح هوميروس قد تنقلت في عدة أجساد منها جسم فيثاغورس ومنها جسم طاووس ثم استقرت في جسم إينيوس Ennius . وقد كتب تاريخاً حماسياً لرومة في صورة ملحمة كبيرة تبدأ من مجيء إيلياس Aeneas إلى پيرس Pyrrhus ، وقد ظلت هذه الحوليات إلى أيام فرجيل الملاحم القومية لإيطاليا ؛ وبقيت منها قطع صغيرة قليلة العدد أشهرها كلها بيت لا يمل المحافظون الرومان ترديده وهو :

قوام الدولة الرومانية أخلاقها القديمة ورجالها العظام .

وكانت القصيدة من حيث الوزن تعد ثورة على الأوزان الشعرية القديمة . فقد استبدل فيها بالوزن المهلهل غير المنتظم الذي كان يستخدمه نيفيوس Naevius الشعر المرن السداسي الأوتاد الذي كان يستخدم في الملاحم اليونانية . وصاغ إينيوس الشعر اليوناني في صور جديدة ، وبث فيه قوة جديدة ، وغمر أبياته بالأفكار ، وأعدده من حيث طريقته وألفاظه وموضوعه وأفكاره للكريشيس وهوراس وفرجيل . وقد توج أعماله الأدبية برسالة عن ملاذ الفم ، ومات بذات الرئة في سن السبعين بعد أن ألف هذه القبرية التي يفخر فيها بنفسه :

لا تبكوا على ولا تحزنوا لوفاتي ؛ فإن أبقى على شفاه الرجال وأحيا (٣٠) .

ونجح إينيوس في كل شيء عدا المسلاه ، ولعل سبب إخفاقه أنه عني بالفلسفة عناية جدية فوق ما يجب ، ونسى نصيحته التي قال فيها « يجب على الإنسان أن يتفلسف دون أن يسرف في فلسفته (٣١) » . وكان الناس يفضلون الضحك على الفلسفة وكانوا في ذلك على حق ؛ وقد أغنوا بهذا التفضيل بلوتس وأفقروا إينيوس . ولهذا السبب عينه لم تلق المآسى المسرحية شيئاً من التشجيع في رومة . نعم إن الأشراف قد أعجبوا بمآسى پكوفيوس Pacuvius وأكيوس Accius ، ولكن الشعب تجاهلها والزمان لم يبق على ذكرها .

وكان موظفو الدولة يعرضون المسرحيات على الجماهير ، رومة ، كما ن
أمثالهم يعرضونها عليه في أثينة ، على أنها جزء من الحفلات التي تقام في
الأعياد الدينية أو في جناز المواطنين الممتازين . وكان الملهى الذى تمثل
فيه مسرحيات بلوتس وترنس يتكون من محالة(*) خشبية تعلوها خلفية
مزخرفة scaena أمامها طوار مستدير للرقص جزؤه الخلفى هو المسرح
Proscaenium . وكان هذا البناء الهش الرقيق يهدم عقب كل حفل كما نفعل
نحن بالمقاهد والحواجز التي نقيمها للاستعراض في هذه الأيام . وكان
النظارة يشاهدون الألعاب وهم وقوف أو جالس على مقاعد يأتون بها
معهم ، أو يتربعون على الأرض في العراء . ولم تبني رومة دار كاملة
للمثيل قبل عام ١٤٥ ق . م ، وحتى في ذلك الوقت كانت الدار لا تزال
بناء خشبياً لا سقف له ، ولكن به مقاعد مصفوفة على نظام المدرجات
اليونانية نصف الدائرية . ولم يكن النظارة يؤدون لدخولها أجراً ، وكان
في مقدور الأرقاء أن يدخلوا دون أن يكون لهم حق الجلوس ، أما النساء
فلم يكن يسمح لهن إلا بالجلوس في المقاعد الخلفية ، ولعل النظارة في ذلك
العهد كانوا أحسن من شهدهم تاريخ التمثيل كله وأشدهم غباوة - فكانوا
جماعة من الصخابين المتزاحمين الوضيعين . وكثيراً ما كان يطلب إليهم في
بداية التمثيل أن يراعوا قواعد الأدب والأخلاق ، كما أن الفكاهات
والنكات السمجة والأفكار البسيطة العادية كان يطلب تكرارها لكي يستطيع
النظارة إدراكها . وكان يطلب إلى الأمهات في بعض الأحيان أن يتركن
أطفالهن في منازلهن ، وكانت الخطب الافتتاحية تنذر الأطفال بالعقاب
إذا أحدثوا شيئاً من الضجيج ، أو تحذر النساء من التثرثرة في أثناء
التمثيل . وترى هذه المطالب كلها مدونة حتى في وسط المسرحيات التي نشرت
فيما بعد (٣٢) . وإذا حدث أن صحب التمثيل صراع ينال المتفوق فيه جائزة ،
أو ألعاب بهلوانية على الحبال ، فقد كان التمثيل ينقطع أحياناً حتى ينتهى الصراع

(*) المحالة الخشبية التي يستقر عليها الطيانون وهي المعروفة بالسقالة . (المترجم)

أو تنتهى الألعاب ، وهما أشد إثارة لحماسة النظارة من التمثيل ؛ وعند ختام تمثيل مسلاة رومانية كانت تلقى العبارة الآتية : « والآن فليصفق الجميع » أو ما فى معناها للدلالة على أن الرواية قد انتهت وأن التصفيق مباح ،

وكان التمثيل خير ما فى المسرح الرومانى ، وكان مدير المسرح من الأحرار ، وكان هو الذى يمثل الدور الرئيسى عادة ، أما غيره من الممثلين فكان معظمهم من الأرقاء اليونان . وكان كل مواطن يتخذ التمثيل حرفة له يفقد بذلك حقوقه المدنية - وهى عادة ظلت قائمة إلى أيام قلتير ؛ وكان الرجال يمثلون أدوار النساء ؛ وكان النظارة قليلى العدد ، ومن أجل ذلك لم يكن الممثلون يلبسون أقنعة بل كانوا يكتبون بالأصباغ والشعر المستعار ؛ فلما أن ازداد عدد النظارة أصبحت الأقنعة واجبة لتميز أشخاص المسرحية بعضهم من بعض ، وكان يطلق على القناع لفير پرسونا *persona* وهو فى أغلب اللظن مشتق من الكلمة التسكانية فرسو *ph rsu* بمعنى قناع ؛ وكانت الأدوار تسمى دراماتيس پرسونى *dramatis personae* أى أقنعة المسرحية . وكان ممثلو الأدوار المحزنة يلبسون أحذية عالية *cothurnus* أما ممثلو الأدوار المضحكة فكانوا يحتدون نعالا وطيفة *soccus* ؛ وكانت بعض أدوار المسرحية تغنى على أنغام المزمار ، وكان المغنون فى بعض الأحيان يغنون الأدوار ، والممثلون يمثلونها تمثيلاً صامتاً بالإشارات .

وقد كتبت ملامى پلوتس بالشعر السهل المكون من أسباب وأوتاد يتلو بعضها بعضاً تقليداً لأوزان الشعر اليونانى وموضوعاته ، ومعظم الملامى اللاتينية التى وصلت إلينا مأخوذة من المسرحيات اليونانية مباشرة ، أو بمزج مسرحيتين يونانيتين أو أكثر بعضها ببعض ، وهى مأخوذة فى الغالب من مسرحيات فيلمون *Philemon* ومناندر *Menander* أو غيرهما من كتاب «المسلاة الجديدة» فى أثينة ، وكان اسم المسرحية الرومانية واسم مؤلفها يكتبان عادة على الصفحة الأولى . وقد حظر الاقتباس من مسرحيات أرسطوفان و«المسلاة القديمة» بمقتضى

قانون الألواح الاثني عشر الذي كان يغاقب على الهجاء السياسي بالإعدام (٣٢) .
ولعل خوف كتاب المسرحيات اللاتين أن يطبق عليهم هذا التشريع الرهيب
هو الذي حدا بهم إلى الاحتفاظ بالمناظر والشخصيات والعادات والأسماء ،
وحتى النقود ، كما كانت في الأصل اليوناني . ولولا بلوتس لكان القانون
الروماني قد أبعث الحياة الرومانية كلها تقريباً عن المسرح الروماني . ولكن
هذه الرقابة الصارمة لم تمنع فحش القول وبديته أن ينطق به على المسرح ،
فقد كان الهدف الذي يبتغيه المشرفون على التمثيل هو تسليية النظارة لا رفع
مستواهم ، ولم يكن جهل العامة ليسوء قط الحكومة الرومانية ، وكان النظارة
يفضلون المزاح السمج على الفكاهة الرقيقة ، ويعجبهم الهزل والتهريج
أكثر مما يعجبهم الخلدق والدهاء ، ويطربهم فحش القول أكثر مما يطربهم
الشعر ، وكان بلوتس أحب إليهم من ترنس .
وكان أول دخول تيتس مكسيوس بلوتس **Titus Maccius Plautus** أي
تيتس المهرج ذى القدم الكرشاء (*) في أمبريا Umbria عام ٢٥٤ ق . م ؛
ولما قدم إلى رومة عمل فيها خادماً من خدم المسرح وادخر بعض المال
وحرص على استثماره ولكنه أضاعه . واضطره العيش إلى كتابة المسرحيات ،
وسر الجاهل بما كان يبثه من الإشارات الرومانية في مسرحياته المقتبسة
من المسرحيات اليونانية . واستطاع بهذه الطريقة أن يجمع بعض المال وأن
يمنح مواطنة رومة . وكان بلوتس رجلاً شعبياً شديداً المرح ضحاكاً
صخباً ، يضحك مع كل إنسان على كل إنسان ، ولكنه كان طيب القلب
عطوفاً على الناس جميعاً . وقد بلغ عدد ما كتبه أو صقله من المسرحيات
مائة وثلاثين بقيت منها إلى الآن عشرون . ومن هذه المسرحيات الباقية
مسرحية **Miles Gloriosus** وهر صورة مرحة بلخندى صخب يغذيه خادمه
وينفحه بالأكاذيب .

(*) القدم الكرشاء هي التي استوى أخصها وانبطحت على الأرض في مرض وغلظ فيها .

الخدام : أرأيت الفتاتين اللتين استوقفتاى بالأمس ؟

الضابط : ماذا قالتا لك ؟

الخدام : لما مررت بنا سألتانى :

« يا عجبا ! هل هنا أخيل العظيم ؟ » فأجبتهما :

« كلا ! وإنما هو أخوه » . ثم قالت الأخرى :

« فى الحق إنه لحميل ! ياله من رجل نبيل !

« ما أبهى شعره ! » وتوسلت إلى كلتااهما :

. . . أن أطلب إليك أن تخرج اليوم مرة أخرى .

حتى تستطيعا رؤيتك عن قرب .

الضابط : ألا ما أكثر ما يجره الجمال على الإنسان من متاعب (٢٤) !

وفى مسرحية أمقثريون **Ampitryon** تنصب السخرية على جوف **Jove** فهو يتذكر فى صورة زوج الكمين **Alcmena** ويدعو نفسه ليستمع إلى قسمه ، ويقرب القربان إلى جوبتر (٣٥) . وفى اليوم التالى يغرر بهذه السيدة فتتم . ويطلب بلوتس إلى الإله فى آخر المسرحية أن يعفو عنه وأن يتقبل من الجواهر أكبر قسط من الثناء . وقد نالت هذه القصة من إعجاب الجماهير فى رومة أيام بلوتس بقدر ما نالت فى أثينة أيام مناندر **Menander** وفى باريس أيام مليير **Molière** ، وما تناله فى نيويورك فى الوقت الحاضر ، أما مسرحية أولولاريا **Aulularia** فهى قصة رجل بخيل يكنز المال ، وفيها من العطف عليه أكثر مما فى رواية البخيل **Avare** لمليير . وترى البخيل فيها يجمع قلامة أظفاره ويتمحسر على ما خسره من الماء فيما أذرفه من الدموع . ومسرحية منكمى **Menaechmi** هى القصة القديمة : قصة التوأمن اللذين يختلط أمرهما على الناس ثم يتبينونهما ، ويرى لسنج **Lessing** أن مسرحية الأسير **Captive** خير مسرحية مثلت فى ملهى (٣٥) . وقد أعجب بها بلوتس أيضاً ويقول فى مستهلها :

ليست مبتدلة ولا هي كغيرها من المسرحيات :
وليس فيها سطور قدرة يستنكف الإنسان أن ينطق بها .
ونيس فيها قواد كاذب ولا مومس خبيثة .

وهو قول حق ، ولكن حبكة المسرحية معقدة غاية التعقيد ، وتعتمد كل الاعتماد المصادفات غير المتوقعة ، وعلى الرؤى العجيبة التي لا يلام صاحب العقل الحريص على صدق التاريخ أن يمر بها دون أن يعيرها أية عناية . ولم يكن سر نجاح هذه المسرحيات هو حيكاتها القديمة بل كثرة ما فيها من الحادثات الفكهة المضحكة والنكات اللفظية المرحة التي لا تقل فحشاً عما في مسرحيات شيكسبير ، والصخب القذر البذيء ، والنساء الطائشات وما يظهرنه في بغض الأحيان من عواطف طيبة : وقد كان في وسع النظارة في كل مسرحية أن يثقوا من وجود حادثة من حوادث الحب ، وتغريب هفتاة ، وبطل وسيم فاضل ، وعبد أرجح عقلا من كل من فيها من الشخصيات مجتمعة . وفي هذه المسرحيات نرى الأدب الروماني منذ بدايته تقريباً وثيق الارتباط بالرجل العادي ، ويصل بما اقتبسه من المسرحيات اليونانية إلى حقائق الحياة ، ويبلغ في هذا حداً لم يبلغه قط فيما بعد .

وفي السنة التي توفي فيها بلوتس على الأرجح (١٨٤ ق . م) ولد في قرطاجنة بيليوس ترنتيوس آفر Publius Terentius من أصل فينيقي ، ولربما كان من أصل إفريقي . ولسنا نعرف عنه شيئاً قبل أن يكون عبداً من عيد ترنتيوس لوكانس Terentius Lucanus في رومة . فقد أدرك هذا الشيخ مواهب الشاب الحبي فعلمه ووهبه حريته ، وتسمى الشاب باسم سيده اعترافاً منه بفضله عليه . وفي وسعنا أن نعرف شيئاً من أخلاق الرومان الطيبة حين نسمع أن ترنس « الفقير الخلق الثياب » جاء إلى بيت كاسيليوس استاتيوس Caecilius Statius - وكانت مسرحيات هذا المؤلف المضحكة هي المسيطرة في ذلك الوقت على المسرح

الرومانى - وقرأ عليه المشهد الأول من مسرحية أندريا ، وأعجب كاسليوس بهذا المشهد إعجاباً حملاً على أن يستبقى الشاعر إلى العشاء معه وأن يستمع إلى بقية المسرحية فى طرب وإعجاب (٢٧) . وما لبث ترنس أن استرعى أسماع إيميلوس Aemilius وليليوس ، وقد حاول كلاهما أن يصقل أسلوبه فيجعلهُ هو الأسلوب اللاتينى الحبيب إلى قلبه . ومن ثم راجت الإشاعة القائلة بأن ليلios هو الذى كان يكتب لترنس مسرحياته ، وهى إشاعة رأى المؤلف كياسة منه وحصافة إلا يؤيدها أو ينكرها (٢٨) . واستمسك ترنس فى أمانة وإخلاص بأصول المسرحيات اليونانية التى نقلها إلى اللاتينية وأطلق على هذه المسرحيات أسماء يونانية ، وتحاشى أن يشير فيها إلى الحياة الرومانية ، ولم يدع لنفسه أكثر من أنه مترجم لهذه الروايات - وهو تواضع منه وبخس لأعماله (٢٩) . ولعل الذى دفعه إلى هذا هو تأثره بالهلينىة المتغلبة على سيبو وجماعته .

ولسنا نعرف ماذا كان مصير تلك المسرحية التى كان كاسليوس يحبها ويعجب بها أشد الإعجاب ، ولكننا نعرف أن هسيرا Hecyra مسرحية ترنس الثانية قد أخفقت لأن النظارة غادروا الملهى فى أثناء التمثيل ليشهدوا صراعاً للديبية . ثم بسم له الحظ فى عام ١٦٢ حين كتب أشهر مسرحياته كلها وهى مسرحية « المعذب نفسه » Heauton Timoroumenos وهى تروى قصة أب منع ابنه أن يتزوج الفتاة التى اختارها لنفسه ، ولكن الابن تزوجها رغم هذا ، فما كان من الأب إلا أن تبرأ منه ونفاه من البلاد ، ثم أنه ضميره وندم على فعلته وعاقب نفسه على ما فعل بامتناعه عن أن يمس ثروته وبأن يعيش عيشة الكدح والفقير ، ثم عرض عليه جار له أن يتدخل فى الأمر ليحل مشكلته ، فيسأله الأب عما يدعوهُ إلى الاهتمام بغيره والإشفاق عليهم ، فيرد عليه الجار بهذه العبارة المعروفة فى جميع أنحاء العالم التى صنفق لها النظارة طرباً وإعجاباً وهى : Hums sum : humani nihil a me alienum puo « إنى إنسان ، ولا أرى أن شيئاً م

يتصل بالإنسان غريب على . ومثلت في السنة التالية مسرحية « الخصى »
وبلغ من إعجاب النظارة بها أن مثلت مرتين في يوم واحد (ولم يكن ذلك
مألوفاً في تلك الأيام) ، وبيع منها ترنس ثمانية آلاف سترس (نحو
١٢٠٠ ريال أمريكي) في يوم ولياثة (٤٠) . وظهرت بعد بضعة أشهر من
ذلك الوقت رواية « الفورميو » وقد سميت كذلك نسبة إلى الخادم الفكه
الذي أنقذ سيده من غضب أبيه ، والذي أصبح فيما بعد نموذجاً لشخصية
فيجارو Figaro القوية في رواية بومارشيه Beaumarchais . وفي عام ١٦٠
ق . م مثلت آخر مسرحية لترنس وهي مسرحية أدلني أو « الإخوة »
في الألعاب التي أقيمت بمناسبة وفاة إيمليوس پولس . وبعد قليل من ذلك
الوقت سافر الكاتب بطريق البحر إلى بلاد اليونان ، ثم مرض وهو عائد
منها ، ومات في أركاديا في الخامسة والعشرين من عمره .

وانصرف الجمهور بعض الانصراف عن مسرحياته الأخيرة ، لأن
الصبغة الهلينية التي اصطبغت بها قد أعلت من قدره فوق ما يجب . فقد كان
يعوزه مرح بلوتس ونخفة روحه وفكاهته ؛ هذا إلى أنه لم يعن في
مسرحياته بمعالجة الحياة الرومانية ، فلم يدخل في المضحك منها أنذالا
فاسدين أو مومسات طائشات ، بل صور كل النساء في تلك المسرحيات
في صور رقيقة ، حتى العاهرات منهن كن يحمن على حافة الفضيلة .
وقد احتوت تلك المسرحيات سطوراً تعد من جوامع الكلم ، وعبارات
جرت مجرى الأمثال ، منها hinc illae lacrimae (« ومن ثم كانت تلك
الدموع ») ومنها fortes Portuna. adiuvat (« الحظ يواتي الشجعان ») ،
quot homines tot sententiae (« عدد الآراء كعدد الرجال ») ،
وعشرات العشرات من أمثالها . ولكن هذا الحكم لا يقدرها إلا أصحاب
الذهنية الفلسفية أو الحساسة الأدبية ، وهما ما لم يجدها العبد الإفريقي في
جمهرة الشعب الروماني . ومن أجل هذا النقص لم يعبأ ذلك الشعب بمسالية التي
توشك أن تكون مأسى ، وبجبهاته المتقنة البناء ولكنها تسير في بناها على مهل ،

وبدراسته الدقيقة للشخصيات الغربية ، وبحواره الهادئ ، وبأسلوبه المفرط في الهدوء ، وفي نقاء لغته نقاء يكاد أن يكون إهانة للشعب الروماني ؛ وكان النظارة وهم يشاهدون هذه المسرحيات كانوا يشعرون بأن قد حدث بينهم وبين الأدب الروماني صدع لن يلائم قط . وقد كان شيشرون - وهو القريب من كتلس قريباً لا يمكنه من أن يراه عن حقيقته ، والحصيف حصافة تحول بينه وبين الإعجاب بلكريشيوس - نقول كان شيشرون يظن أن ترنس أرق شعراء الجمهورية . وكان قيصر أعدل في حكمه عليه حين أثنى عليه بقوله إنه « المحب للكلام الطاهر » ، ولكنه آسف لأنه لم يوهب القدرة على الضحك *vis csmica* ووصفه بأنه « نصف مناندر » *Dimitiatus* Menander . على أن ترنس قد أفلح في شيء واحد على الأقل ؛ ذلك أن هذا الرجل السامى الأجنبي ، الذي تشبع بروح ليليوس وبلاد اليونان ؛ قد صاغ من اللغة اللاتينية أداة أدبية هي التي استطاع بها شيشرون في القرن التالي أن يكتب نثره وفرجيل أن ينشئ شعره .

الفصل السادس

كاتو والمعارضون المحافظون

وامتلأت قلوب الرومان أصحاب النزعة المحافظة خوفاً كما امتلأت نفوسهم اشمئزازاً من هذا الغزو اليوناني لآداب الرومان ، وفلسفتهم ، ودينهم ، وعلومهم ، وآدابهم ؛ ومن هذا الانقلاب العنيف في أخلاقهم ، وعاداتهم ، ودمائهم . وكان من هؤلاء الرومان القدامى المحافظين شيخ متقاعد يدعى فاليريوس فلاكوس **Valerius Flaccus** يقيم في مزرعة سبينية ؛ وأخذ هذا الشيخ يأسف لما أصاب الأخلاق الرومانية القديمة من ضعف وانحلال ، وما أصاب السياسة من فساد ، ومن حلول الأفكار والأساليب اليونانية محل « أساليب أجدادنا » . وكان الرجل شيخاً طاعناً في السن لا تمكنه قواه من أن يكافح بنفسه هذا التيار الجارف ، ولكن اتفق أن كان في مسكن بالقرب منه وفي جوار بلدته ريت **Reate** ، وفي خارج حدودها ، شاب مزارع من العامة اجتمعت له كل الصفات الرومانية القديمة ، فكان يحب فلاحه الأرض ولا يعمل العمل المجهد الشاق ، وكان مقتصداً يعيش عيشة البساطة القديمة ، ولكنه مع ذلك يتحدث حديث المتطرفين النابيين . وكان اسم هذا للرجل **ماركس پورسيوس كاتو Marcus Porcius Cato** وكان سبب تسميته پورسيوس أن أسرته ظلت أجيالاً عدة تربي الخنازير ، أما سبب تسميته كاتو فإن أفراد هذه الأسرة كانوا على جالب عظيم من الدهاء . وأشار عليه فلاكوس أن يدرس القانون ، فعمل كاتو بنصيحته وكسب ما رفعه جيرانه من القضايا في المحاكم المحلية ؛ ثم نصحه فلاكوس أن يسافر إلى رومة ، ففعل ، وما زال يرقى في المناصب العامة حتى أصبح كوسترا يشرف على الشؤون المالية **Quaestor** ولما يبلغ الثلاثين من عمره (٢٠٤) . وفي عام ١٩٩ عين إيديلا مشرفاً على

الأشغال العامة والملاعب والأسواق والشرطة . وما وافق سنة ١٩٨ حتى كان بربتورا Praetor يلي القنصل في المرتبة ، ثم صار قنصلا في عام ١٩٥ ، ثم تزيوناً في عام ١٩١ ، ثم رقيباً Censro في عام ١٨٤ . وكان في هذه المدة قد خدم في الجيش ستة وعشرين عاماً ، وكان فيها كلها جندياً شجاعاً ، وقائداً محنكاً ، قاسى القلب شديد البأس . وكان من رأيه أن النظام أساس الأخلاق والحرية ، وكان يحترم الجندي « الذى يستخدم يديه فى المشى وقدميه فى الحرب ، والذى يعلو غطيظه فى النوم على صراخه فى الحرب » . ولكنه كسب احترام جنده بسيره إلى جانبهم على قدميه ، وبإعطاء كل منهم رطلا من الفضة من غنائم الحرب ، وعدم احتفاظه بشيء من هذه الغنائم لنفسه (٤١)

وكان فى فترات السلم يندد بالخطابة والخطباء ، وأصبح بهذا العمل أقوى خطباء زمانه . وكان الرومان يستمعون إليه وهم مأخوذون على الرغم منهم بسحر بيانه ، لأن أحداً من قبله لم يتحدث إليهم بمثل ما تحدث به هو من الإخلاص الواضح والفكاهة اللاذعة . وكان فى مقدوره أن يسقط سوط لسانه على أى إنسان يستمع خطبه ، ولكن من يستمعه كان يسره أن يرى هذا السوط يسقط على جاره . وظل كاتو يكافح الفساد والرشوة فى رومة غير عابئ بما يصيبه فى هذا الكفاح ، ولم تغرب عليه شمس يوم من الأيام إلا وقد نعلق له فيه عدواً جديداً . وقلما كان أحد يحبه لأنه كان يقلق بال الناس بوجهه الكثير الندب ، وشعره الأحمر الأشعث ، ويخيفهم ويهددهم بأسنانه الكبيرة ، ويخجلهم بتشفه ، ويسبقهم بجده وكلدحه ، وتنفذ نظراته التى يلقها عليهم من عينيه الخضراوين خلال أفاظهم إلى مكنون صدورهم ، فيطلع فيها على أنانيتهم . وحاول أعداؤه من الأشراف أن يقضوا عليه بما وجهوه إليه من التهم العلية ، ولكنه فى كل مرة كان ينجيه من هذا الاتهام اعراض الزراع الذين كانوا لا يقلون عنه بغضاً للفساد والترى (٤٢) . ولما أن رفعت أصوات العامة إلى منصب الرقيب وجفت قلوب

الرومان أجمعين . وما أن تولى هذا المنصب حتى أخذ ينفذ النذر التي أنذر بها ،
والتي كسب بها المعركة الانتخابية ، ففرض الضرائب الباهظة على الكماليات ،
وأوقع غرامة على أحد أعضاء مجلس الشيوخ لإسرافه ، وأخرج من هذا
المجلس ستة من أعضائه وجد في سجلاتهم أحكاماً قضائية . وطرده منه
مانايوس لأنه قبل زوجته علناً ، وقال عن نفسه أنه لم يعانق قط زوجته إلا
وقت قصف الرعد - وإن كان يسره أن يقصف الرعد . وأتم كاتو نظام
المجاري في المدينة ، وقطع الأنابيب التي تأخذ الماء خفية وخيانة من القنوات
المبنية العامة ، وأجبر الملاك على أن يهدموا ما كان يمتد من مبانيهم في عرض
الطريق أو فوقه ، وخفض ما كانت تؤديه الدولة ثمناً للأعمال العامة ، وأرغم
جباة الضرائب على أن يؤدوا لخزانة الدولة نصيباً أوفى مما كانوا يجنونه من
الأهليين (٤٨) . وبعد أن قضى خمس سنين يجاهد جهاد الأبطال في أعمال
تعارض مع طبيعة الإنسان ، اعتزال منصبه واستثمر ما كان له من المال
استثماراً ناجحاً ، وملاً ضيعته التي اتسعت رقعتها في ذلك الوقت بالعبيد ،
وأخذ يقترض المال بربا فاحش ويبتاع الرقيق بأبخس الأثمان ، ثم يدرّبهم
على بعض الأعمال التي تتطلب شيئاً من المهارة ، ويبيعهم بأغلاها ،
وبذلك أثري إثراء مكنه من أن ينقطع لتأليف الكتب - وهي مهنة
كان يزدريها

وكان كاتو أول كاتب عظيم من كتاب النثر اللاتيني ، وقد بدأ كتاباته بنشر
بمجموعة خطبه ، ثم أصدر كتاباً في فن الخطابة دعا فيه إلى التزام الأسلوب الحشن
الروماني بدل أسلوب الخطباء الإيزوقراطى *Isocratean* (*) الرقيق ، وعرف الخطيب
بأنه «رجل صالح برع في الكلام *vir bonus dicendi peritus* وهما صنفان قل
أن اجتماعهما في إنسان » ، وبهذا التعريف أوجد مجالاً لحدل كونتليان *quintilian*

(*) نسبة إلى إيزوقراطيس الخطيب والكاتب الأثيني البليغ (٤٣٦ - ٣٣٥ ق . م)

(المترجم)

ونقاشه ، وكتب رسالة جمع فيها تجاربه في الزراعة وسماها *De agricultura* ،
وهي الكتاب الوحيد الذي وصل إلينا من كتب كاتو ، وأقدم كتاب
في اللغة اللاتينية الأدبية أتى عليه الدهر ، وقد كتب هذا الكتاب بأسلوب
سهل رصين مركز تركيزا يجعله من جوامع الكلم ، فهو لا يسرف في
الألفاظ ، وقلما ينزل فيه إلى استخدام حرف من حروف الوصف ، وفي
هذا الكتاب يقدم النصائح المفصلة لمن يريد أن يشتري أو يبيع الرقيق (فيقول
مثلا : إن كبار السن منهم يجب أن يباعوا قبل أن يصيروا مصير نخسارة
لسادتهم) ، ولمن يوجب الأرض بجزء من غلتها ، ولزراع الكروم والأشجار ،
وتدبير شؤون المنازل والصناعات ، وصنع الأسمت وطهو أصناف الطعام
النادرة الشمية ، وعلاج الإمساك والإسهال ، ومداواة لسع الأفاعي
بروث الخنازير ، وتقريب القربان للآلهة . ويسأل كاتو نفسه في هذا
الكتاب عن أحكم الطرق للإفادة من الأرض الزراعية ، ثم يجيب عن
هذا السؤال بقوله إنها « تربية الماشية المربحة » ، وتليها « تربية الماشية
المتوسطة الربح » ، وتليها « تربية الماشية العديمة الربح » ، وتليها كلها
« حرث الأرض وزرعها » . وهذه هي الحجج التي أوجدت الضياع
للواحدة في إيطاليا .

ولعل أهم كتبه كلها هو كتاب « الأصول » *Oaigines* الذي لم يعثر
عليه حتى الآن ، وهو محاولة جريئة للبحث في آثار إيطاليا ، وشعوبها ،
ونظمها ، وتاريخها منذ نشأتها إلى السنة التي مات فيها كاتو ، ولا نكاد
نعرف من هذا الكتاب أكثر من أن مؤلفه أراد أن يغيظ الأشراف
بالسخرية من أسلافهم فلم يذكر فيه اسم أحد من قواد الحرب ، ثم ذكر
فيلا باسمه ، وأثنى عليه لأنه قاتل بيرس *Pyrrhus* قتال الأبطال (٥٠) .
وكان الغرض الذي يهدف إليه كاتو من تأليف هذا الكتاب ومن مقالاته
عن الخطابة ، والزراعة والصحة العامة ، والعلوم العسكرية ،

والقانون ، أن يؤلف دائرة معارف يستعين بها على تربية ولده . وكان يرجو من الكتابة اللاتينية أن تحمل الكتب المكتوبة بهذه اللغة محل الكتب المدرسية اليونانية التي كان يرى أنها تربك عقول شباب الرومان وتفسدها ويلوح أنه ، وإن كان هو نفسه قد درس اليونانية ، كان مخلصا في اعتقاده أن دراسة الأدب اليوناني والفلسفة اليونانية ستعجل بالقضاء على العقائد الدينية لدى شباب الرومان ، فلا يكون في حياتهم الخلقية ما يحميها من الشراهة والخصام والغرائز الجنسية ، وكان يسخط على سقراط كما يسخط عليه نتشه ، ويصفه بأنه أشبه بالقاباة العجوز الثثار ، ويقول إن قتله مسموماً كان جزاء حقا على إفساده أخلاق أثينة وشرائعها (٤٦) .

وحتى الأطباء اليونان أنفسهم كانوا من أبغض الناس إليه ، وكان يفضل على طبهم العلاج المنزلي القديم ، ولا يثق بالجراحين الذي يعجلون باستعمال المبضع في أكثر الحالات . وقد كتب إلى والده يقول :

« اليونان جنس مجرم عنيد وأؤكد أن هذا الشعب إذا ما عمر أدبه رومة سيقضى على كل شيء فيها وسيكون هذا القضاء عاجلا إذا ما بعث إليه بأطبائه ؛ لقد أجمعوا أمرهم بينهم على أن يقتلوا كل « البرابرة » . . . حذار أن تكون لك صلة بالأطباء » (٤٧)

وكان وهو الذي يعتقد هذه الآراء العدو الطبيعي الأكبر للندوة اللسيونية ، وهي التي كانت ترى أن انتشار الآداب اليونانية في رومة عاملا لا بد منه لرفع الآداب اللاتينية والعقلية الرومانية إلى كمال نموها ، وكان كاتو ممن أشاروا بمحاكمة سيبو الإفريقي وأخيه ، وقال إن القوانين التي تحرم الرشوة والفساد يجب ألا يفرق فيها بين الأشخاص . أما الدول الأجنبية فكان ينادى بأن تعامل جميعها ، إلا واحدة منها بالعدل ، وألا تتدخل رومة في شؤونها ، وكان يحتمر اليونان وإن كان يعظم با دم ويجلها . ولما أن قام دعاة الاستعمار النهابون من أعضاء مجلس الشيوخ يدعون إلى محاربة رودس الغنية ألقى عليهم خطبة قوية يدعو فيها إلى

السلام وإلى مصالحة أهل تلك الجزيرة . أما الدولة التي كان ي
استثنائها من المعاملة العادلة ، ومن عدم التدخل في شؤونها فهي - كما
يعلم العالم كله - قرطاجنة : ولما أرسل إليها في بعثة رسمية عام ١٧٥ هـ
ما رأى من انتعاش المدينة واستعادتها حياتها بعد الذي أصابها في حروب
هنيبال ، وما وقعت عليه عيناه من بساتين الفاكهة والكروم ، وما
يتدفق فيها من الثروة الناتجة من انتعاش تجارتها ، وما كانت تخرجه دور
الصناعة فيها من أسلحة : فلما عاد أمسك أمام المجلس بكمية من التين الطالرج
قطفها من أشجار قرطاجنة منذ ثلاث أيام ليتخذها رمزاً لرخاء المدينة
وقربها من رومة ، وهما القرب والرخاء اللذان كانا نذيرى شويم لرومة ،
وتنبأ بأنه إذا تركت قرطاجنة وشأنها فإنها لا تلبث أن يكون لها من الثراء
ومن القوة ما يحفزها إلى العودة إلى كفاحها للسيطرة على البحر الأبيض
المتوسط . وظل من ذلك اليوم ينحتم كل خطاب له في مجلس الشيوخ أيا كان
موضوعه بتلك العبارة التي تم عن عقيدته وعناده ، وبصر عليها
إصراراً عجيباً : « هذا إلى أنى أعتقد أن قرطاجنة يجب أن تدمر »
Ceterum censes delendum esse Carthaginem . وكان دعاة الاستعمار
في مجلس الشيوخ متفقين معه في رأيه ، ولم يكن ذلك لأنهم يطمعون
تجارة قرطاجنة ، بل لأنهم كانوا يرون في حقول شمال إفريقيا ،
وهي الحقول الخصبة التربة الجيدة الإرواء ، مجالاً جديداً يستثمرون فيه
أموالهم ويفلحونه على أيدي الرقيق . وكانوا والحالة هذه ينتظرون على
أحر من الجمر حجة يتذرعون بها لخوض غمار الحرب البونية الثالثة .

الفصل السابع

يجب أن تمحي قرطاجنة من الوجود

وجاءتهم هذه الحججة من أعجب حكام ذلك الوقت - مسينسا Masinissa ملك نوميديا Numidia - وهو ملك عمر تسعين عاماً (٢٣٨ - ١٤٨) ورزق ولداً وهو في السادسة والثمانين من عمره (٤٨) ، ووضع لنفسه نظاماً صارماً لحياته استمسك به كل الاستمساك ، واستبقى به صحته وقوته إلى آخر أيامه تقريباً . وقد أفلح هذا الملك في تنظيم رعاياه البدو ، وبدلهم من حياة الترحال حياة الاستقرار الزراعية ، وأنشأ منهم دولة منظمة ظل حكمها صالحاً مدى ستين عاماً ؛ وجعل مدينة سرتا Cirta حاضرة البلاد بما أنشأ فيها من المباني الفخمة . ودفن بعد وفاته في قبره وهو الهرم العظيم الذي لا يزال باقياً إلى اليوم قرب مدينة قسطنطينة في بلاد تونس . واستطاع هذا الملك أن يكسب صداقة رومة ، وكان يدرك ما عليه قرطاجنة من ضعف سياسي ، فأخذ يغير المرة بعد المرة على أراضيها ، وينتصها من أطرافها ، فاستولى على لبتس Leptis العظيمة وغيرها من المدن ، وما زال على هذه الخطة حتى سيطر بها على جميع المسالك البرية المؤدية إلى العاصمة المنهوكة القوى . وإذا كانت المعاهدة المعقودة بين رومة وقرطاجنة تحرم على ثانيتهما الاشتباك في حرب إلا برضاء أولاهما فقد أرسلت قرطاجنة سفراء من عندها إلى مجلس الشيوخ في رومة ليحتجوا على عدوان مسينسا . فما كان من هذا المجلس إلا أن نبه هؤلاء السفراء إلى أن الفينيقيين على بكرة أبيهم دخلاء في إفريقية ، وأنهم ليس لهم فيها حقوق تضطر أية أمة مسلحة أن تحترمها . فلما أدت قرطاجنة إلى رومة آخر الإقساط السنوية الخمسين من الغرامة المفروضة عليها بتمتضي معاهدة زاما وهي ٢٠٠ تالنت ظنت أنها بهذا الأداء قد تحررت من التزاماتها ، وأعلنت الحرب على

مومبيديا في عام ١٥١ ، وفي السنة الثالثة أعلنت رومة الحرب على قرطاجنة
ووصل هذا النبأ الأخير إلى مسامع القرطاجنيين ، ووصل معه أن
الأسطول الروماني قد أقلع إلى إفريقيا . ولم تكن المدينة القديمة مسعدة
لخوض نهم حرب عوان مهما يكن من كثرة سكانها وضحامة تجارتها ؛
ذلك أن جيشها كان صغيراً وأن أسطولها كان أصغر من جيشها ، ولم يكن
لها جنود مرتزقة ولا حلفاء يضاف إلى هذا أن رومة كانت تسيطر على
البحار ، ومن أجل هذا أعلنت أتكا انضمامها إلى رومة ، وحال مسيئسا
بين قرطاجنة وبين الاتصال بالأرض التي خلفها في القارة الإفريقية ،
وأرسلت قرطاجنة بعثة عاجلة إلى رومة وأمرتها أن تهبها إلى جميع مطالبها
فوعدها مجلس الشيوخ الروماني بأنه إذا أسلمت قرطاجنة إلى القنصلين
الرومانيين في صقلية ثلثمائة من أبناء أشرف الأسر فيها ليكونوا رهائن لديهما ،
وأجابت القنصلين إلى جميع مطالبهما أيا كانت هذه المطالب ، احتفظت
في نظير ذلك بحريتها وسلامة أرضها ؛ وأرسل مجلس الشيوخ أوامر سرية إلى
القنصلين لينفذا ما صدر إليهما قبل من الأوامر : وأسلم القرطاجنيون أطفالهم
بقلوب واجفة وعيون باكية ، واحتشد آباؤهم عند شاطئ البحر يودعونهم .
وهم في أشد الألم والحسرة ، وحاولت أمهاتهم في آخر لحظة أن يمنع السفن
من المسير ، وألقت بعضهن أنفسهن في الماء ، وأخذن يسبحن فيه ليلقين
آخر نظرة على أطفالهن . وأرسل القنصلان الأطفال إلى رومة ، وعبر البحر
إلى يتكا Utca على رأس الجيش والأسطول ، واستدعيا سفراء قرطاجنة ،
وطلبوا أن تسلم بلدهما كل ما بقي لها من السفن ، وكمية كبيرة من الجيوب
وجميع الأسلحة والمعدات الحربية . فلما أجيبت هذه المطالب كلها ، طلب
القنصلان بعدئذ أن يخرج جميع سكان قرطاجنة منها ، وأن يقيموا على بعد
عشرة أميال من المدينة ، لأنهما سيأمران بإحراقها عن آخرها .
وحاول السفراء عبثاً أن يقنعوا الرومان بأن تدمير مدينة أسلمت إلى
أعدائها رهائن من أهلها وجميع أسلحتها من غير قتال غدر ومعيانة

لا نظير لهما في التاريخ كله . وعرضوا ان يقدموا حياتهم فداء لمدينتهم
وتكفيرا عما عساها أن تكون قد اقترفته من الذنوب ، وخرروا على الأرض
سجداً وأخذوا يضربونها برؤوسهم . فأجابهم القنصلان بقولهم إن هذه هي
شروط مجلس الشيوخ وإنهما لا يستطيعان أن يغيرا منها شيئاً .

ولما سمع أهل قرطاجنة بما هو مفروض عليهم جن جنونهم ، وطاشت
أحلامهم ، فأخذ آباء الأطفال الذين أسلموا رهائن إلى رومة يقطعون أجسام
القواد الذين أشاروا بتسليمهم ، وقتل آخرون القواد الذين أشاروا بتسليم
السلاح ، وأخذ غيرهم يجررون السفراء العائدين في شوارع المدينة ويرجمونهم
بالحجارة ، ومنهم من قتلوا كل من وجدوهم في المدينة من الإيطاليين ، ومنهم
من وقفوا في دور الصناعة الحالية من السلاح ليكون وينتجون . وأعلن مجلس
شيوخ قرطاجنة الحرب على رومة ، وأهاب بكل من فيها من البالغين رجالاً
ونساء ، أرقاء وأحراراً ، أن يجيشوا جيشاً جديداً ، وأن يصنعوا أسلحة
جديدة يدافعون بها عن المدينة . وثبت الغضب قلوبهم ، وقوى عزائمهم ،
وأخذوا يهدمون المباني العامة لينتفعوا بما فيها من خشب وحديد ، وصهرت
تماثيل الآلهة الأجزاء لتصنع منها السيوف ، وجزت شعور النساء لتصنع منها
الخيال ، ولم يمض على المدينة المحصورة إلا شهران حتى أخرجت ٨٠٠٠
درع ، ١٨٠٠٠ سيف ، ٧٠٠٠٠ ربة ، وستين ألف قذيفة منجنيقية ،
وبنت في مينائها الداخلي عمارة بحرية مؤلفة من ١٢٠ سفينة (٤٩) .

وقاومت المدينة الحصار براً وبحراً ثلاث سنين ، كان القنصلان
في خلاهما يهاجمان أسوارها بجيوشهما ، وكانا في كل مرة يرتدان
عنها خائبين . ولما كان سيديو إيمليانس وحده - وهو أحد التربيونين
العسكريين - هو الذي أظهر في هذا الحصار براحة ودهاء ، فقد عينه
مجلس الشيوخ الروماني والجمعية قنصلاً وقائداً في عام ١٤٧ ، ولم يعارض
هذا التعيين أحد حتى كاتو نفسه . ولم يمض على ذلك إلا قليلاً
حتى نجح ليبيوس في تساق أسوار المدينة . ودافع القرطاجنيون

هنما شارعاً شارحاً ، وإن كان الجوع قد أضناهم وأهلك الكثيرين منهم ، ولكنهم واصلوا دفاعهم ستة أسابيع كاملة ، وأعداؤهم يحصدونهم حصداً بلا شفقة ولا رحمة . ولما رأى سيبو أن قناصة الأعداء يصيدون رجاله وهم كامنون وراء الجدران ، أمر أن تشعل النيران في كل الشوارع التي يستولون عليها ، وأن تدك مبانيها دكاً ، فاحترق في اللهب كثير من الجنود المختبئين في الدور . ووجد القرطاجنيون آخر الأمر أن لا بد لهم من التسليم بعد أن نقص عددهم من خمسمائة ألف إلى خمسة وخمسين ألفاً . وطاب قائلهم هزدر وبال أن يؤمن على حياته فأجابه سيبو إلى ما طلب ، ولكن زوجته عبرته بجبنه وألقت بنفسها وبأولادها في اللهب . وبيع من بقي من الأهالي حياً في سوق الرقيق ، وأسلمت المدينة إلى الجيوش الرومانية ينهبونها ويعيشون فيها فساداً . وأحجم سيبو عن تدميرها ، وأرسل إلى مجلس الشيوخ يسأله رأيه الأخير ، فرد عليه المجلس بأن قرطاجنة نفسها وكل ما انضم إليها في الحرب من البلاد التابعة لها يجب أن تدمر عن آخرها ، وأن تحرث أرضها وتغطى بالملح ، وأن تصب اللعنات على كل من يحاول بناء شيء في موضعها ، وظلت النار مشتعلة في المدينة سبعة عشر يوماً كاملة .

ولم يعتقد صلح أو توقع معاهدة ، لأن الدولة القرطاجنية لم يبق لها وجود ، وتركت يتكا *Utica* وغيرها من مدن إفريقية التي ساعدت رومة حرة تحت حمايتها ، وأما ما بقي من أملاك قرطاجنة فقد جعل ولاية خاضعة لرومة وسمى ولاية « إفريقية *Africa* » . وجاء الممولون الرومان وقسموا الأرض ضياعاً ، وورث التجار الرومان التجارة القرطاجنية ، وأضحى الاستعمار العامل المحرك الدافع للسياسة الرومانية ، والغرض السافر الصريح الذي تعمل له عن قصد وتدبير ، وضمت سرقوسة إلى ولاية صقلية الرومانية ، وأخضعت بلاد غالة الجنوبية لتكون هي الطريق البري لأسبانيا بعد أن خضعت كلها لرومة ، ولم تجد رومة

صعوبة في إقناع مملكتي مصر وسوريا المصطبغتين بالصبغة الهلينية بالخضوع
لى رغبات رومة - كما اضطر پوپليوس Popilius أنتيوخوس Antiochus
الرابع - إلى الخضوع لها بلا قتال . وإذا نظرنا إلى تدمير قرطاجنة وكورنثة
فى عام ١٤٦ من الناحية الأخلاقية - وهى نظرة لها شأنها على الدوام فى السياسة
الدولية - حكماً دون تردد بأن هذا العمل من أفظع الفتوح وأشدها وحشية
فى التاريخ كله . أما من ناحية الاستعمار وبناء الإمبراطوريات - أى من ناحية
السلامة والثراء - فقد كان هذا الفتح حجر الزاوية فى سيادة رومة التجارية
والبحرية ، فقد أصبحت منذ تلك اللحظة هى المسيطرة على البحر الأبيض
المتوسط ، والمتصرفة فى مصائره ، وارتبط تاريخه بتاريخها أوثق ارتباط .

ومات فى أثناء هذه الحرب من أشعلوا نارها تحيطهم هالة من النصر
والفخار : فمات كاتو فى عام ١٤٩ ، ومسينسا فى عام ١٤٨ ، وترك الرقيب
الطاعن فى السن (*) أثراً عميقاً فى التاريخ الرومانى وظل الناس قروناً كثيرة
يروون فيه الرومانى النموذجى فى عصر الجمهورية ، واتخذ شيشرون فى كتابه
De Senectute المثل الأعلى للرجال ، وحاول حفيد حفيده أن يأخذ نفسه
بفلسفته خالية من فكاهته كما حاول ماركس أورليوسى أن يتخذه نموذجاً له
ينسج على منواله ، وكان فرنطو Fronto يهيب بالأدباء اللاتين أن يعودوا
إلى أسلوبه البسيط الخالى من الالتواء والتعقيد . ولكنه مع ذلك لم يفلح إلا
فى أمر واحد وهو تدمير قرطاجنة ، أما مقاومته للهلينية ومحاولته أن يمنعها
من السيطرة على الحياة الرومانية فقد أخفق فيها كل الإخفاق ، واستسلمت
كل نواحي الحياة الرومانية من أدب ، وفلسفة ، وخطابة ، وعلم ، وفن ،
ودين ، وأخلاق وعادات ، وملابس ، استسلمت هذه كلها لتأثير اليونان .
لقد كان كاتو يكره الفلاسفة اليونان ؛ ولكن حفيده الشهير كان يحيط نفسه
بهم ، وظلت العقيدة الدينية التى فقدتها هو تضمحل رغم ما بذل من الجهود

(*) يريد كاتو .

لإحيائها وأهم من هذا كله أن الفساد السياسي الذي قاومه في شبابه أخذ ينتشر ويعظم كلما زادت مخاطر المناصب الحكومية باتساع رقعة الإمبراطورية • وكان كل فتح حربي جديد يزيد في ثراء رومة كما يزيد في فسادها ووحشيتها ، وكانت قد كسبت كل حرب خاضت غمارها عدا حرب الطبقات ، وأزال تدمير قرطاجنة آخر هائق قائم في سبيل الانقسام والفتن في المدينة ، وجوزيت رومة على تملكها العالم بثورات طاحنة وفتن صماء دامت قرناً من الزمان .